رواية

بائع الحظ

العاهرات لا يأكلن
شطائر التفاح

أحمد هشام

مكتبة
بيت الحضريات
maktabbah.blogspot.com

تشكيل للنشر والتوزيع

بائع الحظ

العاهرات لا يأكلن شطائر التفاح

رواية

أحمد هشام

الفصل الأول

عيش.. حرية.. عدالة إجتماعية

هِتافٌ مدوي يزلزل الأرض من تحت الأقدام، صِياحٌ موحد مرتب تكالب عليه الجميع دون اتفاق، يكفي التوافق بنية مسبقة مبيتة، أنين السماء شارك هو الآخر وزقزقات العصافير كانت تزف الثوار إلى خنادقهم، انصاع كل شيء لهم حتى المباني الشاهقة كانت لتخر من هول النخوة، النيران كانت بردًا وسلامًا والرصاص ما كان ليسكن أجسادهم إلا شفقة منه إلى جنة الخلد، اشتباكات هنا وهناك، حالة من الهرج والمرج تجتاح الجميع.. في حين وضع رأسه مُستلقيًا كعادته تمهيدًا للصعق الكهربائي كما يسميه.. إلا أن بداخل مستشفى العباسية له مسمى آخر.. " جلسة كهربائية علاجية " من شأنها ترويض المريض.. لكنهم لا يعلمون أنها تزيده إصرارًا على الفَتكِ بهم إن سنحت له الفرصة.

نظر إلى الطبيب قائلًا:

ـ أظنها المرة المائة بعد الألف

إستسلم تمامًا دون مقاومة، ولى زمن الرفض، تلك الجلسة باتت روتينية بالنسبة له ـ رغم الألم ـ إلا أن السنوات التي حياها هنا أفقدته الشعور، وهو على مشارف النهاية لم يكن يحسب يومًا أنه سيموت هنا.

كان يود أن تكون النهاية أفضل، بين أحضان زوجته على سريره الدافىء، حتى وإن مات شابًا دون أن يصل إلى أرذل العمر كما وصل، ما فائدة الوصول إلى نقطة بعيدة إن كانت ذا غربة موحشة.

وضع الطبيب الأسلاك الكهربائية على جمجمته، حديث التخرج و العهد يتدرب فيه من أجل نيل درجة وظيفية أعلى كي يزيد راتبه بضع جنيهات أخرى، وما أن همَّ على التشغيل حتى انتبه لصوت انفجار ضخم وأصوات مذعورة تتهافت على الصريخ.

ترك الطبيب ما في يده وفر إلى الخارج كي يستكشف ما يحدث، أناس يركضون باتجاه الباب الرئيسي للمستشفى، تظاهرات ضخمة اعترضها الأمن مما أدى إلى إشتباك من شأنه اقتحام المستشفى وتحطيم كافة الأبواب، قنابل الغاز المسيل للدموع تقذف في كافة الإتجاهات في الداخل حتى باتت الرؤية ضبابية، الجميع يحاول اختراق الدخان ومحاولة الصمود أمام الاختناق حتى الوصول لخارج تلك الأسوار.

تدلى من على السرير ببطءٍ شديدٍ حاملًا حقيبته التي لم تفارقه كل تلك السنوات، تحرك إلى الخارج حيث يتدافع المرضى جميعهم متسابقين لاستنشاق الهواء بالخارج، تتهاوى خطواته وسط ركض الجميع من حوله، يدفعونه دفعًا، وما إن وصل إلى الباب الرئيسي حتى ظل ساكنًا.

الكل أصبح في الخارج إلا هو، قدماه قد نسيت معنى العبور إلى عالم آخر، عمره بأكمله قد قضاه هنا، خارج تلك الحدود حياة أخرى لا يتنبأ باستطاعة التأقلم معها، مزيج من الخوف والحذر مع الحنين قد انتابه، أشعة الشمس تتمايل على وجهه في رجاء له أن يحتضنها، يخشاها رغم كونها دائمًا مصدر للطمأنينة، انقشاع الليل وشروق الشمس دائمًا ما يذكرنا في حواديت الطفولة بأن كل شيءٍ على ما يرام.. إلا أن تركيبته النفسية قد اختلت..حتى سقط أرضًا من قوة التدافع مغشيًا عليه.

صوت نقر على الباب أجبره على الاستيقاظ، لم يكن نائمًا بل ضل الطريق في متاهة ذلك الحدث الذي لا يلبث أن يغفل حتى يتذكر كل تفصيلة فيه، فتح عينيه ببطءٍ شديد بعدما فصله ذلك الصوت عن شروده، كلما جلس وحيدًا كلما تذكر ذلك المشهد الأخير قبل شهور حينما هرب من تلك المستشفى مُغادرًا إلى الحياة الدنيا، استأجر ذلك المنزل بعد معاناة وظل مُستلقيًا

على أريكته المتهالكة في منزله الغير مهندم، كل قطعة فيه ليست على حالها، لا يوجد داخله أي نوع من أنواع التكنولوجيا، حتى الاضاءة تكون بواسطة قنديل يشعل فتيله كي يضيء أمامه بعض الشيء، نهض ليستكشف شخص الطارق؛ فمنذ عام لم يجرؤ أحد على قرع ذلك الباب، فتح الباب ببطء شديد، أحَد الجيران من الشباب قد استجمع شجاعته كي يخبره بأن سلك الإنترنت الذي يمر من شرفته قد قطع، سمح له بالدخول بإيماءة دون أن ينطق، اتجه ذلك الشاب إلى الداخل وما أن اقترب من الشرفة حتى سكنت خطواته ثم تراجع خطوتين إلى الوراء؛ لينظر إلى ذلك الورق الملقى على المنضدة.

حدق فيه كثيرًا إنه بعض من ورق اليانصيب من فئة الخمسة قروش و المؤرخ ٢٣ نوفمبر ١٩٦٦ والمعنون الجمعية اليونانية اشيلاريون بالأسكندرية، يانصيب الجمعيات الخيرية بالجمهورية العربية المتحدة إصدار بنك القاهرة والسحب على الفوز بمبلغ ستمائة جنيه مصري.

إبتسم بسخرية بمجرد الاطلاع على مبلغ الجائزة الضئيل على فرضية أن تلك الأوراق مسموح التداول بها حتى الآن، ظل يطالع تلك الأوراق حتى شعر بحرارة تنبعث من خلفه، إلتفت ليجد ذلك الرجل يقف خلفه تمامًا.. تلعثم الشاب قائلًا:

- مرحبًا بك اسمي حسين، مد يده كي يصافحه دون أن يقابله بالمصافحة.

تدارك الأمر سريعًا قائلًا:

- هل تتاجر في العملات التذكارية والأوراق الأثرية؟

أجابه باشمئزاز:

- افعل ما جئت من أجله وانصرف

- كنت أود واحدة من تلك للذكرى

- لا أهادي شخصًا بأوراق عملي، إنها بخمسة قروش إن كنت تود واحدة فادفع لي ثمنها.

نظر حسين إلى ذلك الرجل قائلًا باستنكار:

- خمسة قروش فقط!

وما هم على أن يكمل حديثه حتى قاطعه قائلًا:

- إن كنت تريدها فادفع لي ما طلبته.

صمت لبضع ثوانٍ ثم نطق أخيرًا بعد أن اقترب منه وتحسسه كي يتأكد أنه لم يجن قائلًا:

- هل بإمكانك أن تخبرني بما تُجدي الخمسة قروش في زمننا هذا؟

- توقيتاتك لا شأن لي بها

- ما اسمك؟ لم أعرفه منذ أن التقينا

- بائع الحظ.. نادني ببائع الحظ

- من ذلك الأبله!!

قالها حسين في نفسه سِرًا بعد أن أخذ ورقة اليانصيب ووضع جنيهًا على المنضدة؛ لكون عملة الخمسة قروش تلك لم يعد التعامل بها ممكنًا.

تركه وانصرف مُتجهًا إلى منزله، نظر بائع الحظ من النافذة كما تعود في المستشفى، احترف معرفة التوقيتات من النظر إلى السماء، لون الضوء وانعكاسه مع شكل الشمس والقمر يستطيع من خلاله معرفة التوقيت بحرفية تفوق ساعات الماركات العالمية. أدرك أن الساعة قد قاربت على الثامنة والنصف صباحًا، ارتدى ملابسه مُتجهًا إلى المنطقة التي يقف فيها يوميًا ليربح ما يكفيه كي يقتات منه.

لم يرهق من كثرة النداء على تلك الأوراق التي يحملها مستسمحًا المارة أن يشتروا منه، مؤكدًا في كل نداء أن الرابح الوحيد هو من سيقدم الآن ويشتري ورقة يانصيب منه.

ينادي بملء فيه:

- يانصيب للبيع.. يانصيب للبيع.. إكسب البريمو

لا يبالي المارة بما يقوله ذلك المعتوه على حد وصفهم، لا يدركون معنى ذلك الأمر؛ فتلك المهنة قد انقرضت منذ قديم الأزل، المرة الأخيرة التي سمع فيها أحدهم تلك الجملة وأدرك معناها يتعدى عمره السبعين عامًا، أصر ذلك الرجل على النداء وأصر المارة على أن يوبخوه بنظراتهم الحادة، حتى ملابسه إندثرت منذ القدم، أنيقة إلا أنها لم يعد لها مكانًا وسط كم صور

الموضة في عصرنا هذا، يرتدي بدلة سموكينج يبدو عليها أنها قد سرقت من متحف ما ويتوارى بعض من خصلات شعره خلف قبعة سوداء اللون.

بدا على المارة علامات التعجب والحيرة، ورق اليانصيب غير متاح منذ سنين وتلك المهنة لم يعد امتهانها ممكنًا في عصرنا هذا. أسئلة استنكارية راودتهم جميعًا، من حين لآخر نادرًا ما يقطع صياحه بعض من المارة من هواة جمع الأثريات مطلعين على ما يحمله، يمسكون بالورق ويحدقون فيه كثيرًا ثم يتعجبون من ضآلة ما يطلبه مقابل تلك الأوراق الأثرية، يتركون له بالطبع مبلغ أكبر ويمضون في طريقهم مرة أخرى، لملم الرجل أغراضه بملامح حادة جامدة لا تعكس آية تعبيرات من شأنها معرفة ماهيته، يسير مُترجلًا وهو يحمل في طيات ملابسه ورق اليانصيب الذي يجول به حتى انتهى به المطاف إلى منزله مرة أخرى بعدما اشترى بعضًا من الطعام اليومي والذي لم يتنوع مطلقًا.

إستقر حسين في غرفته يحدق إلى تلك الورقة التي اشتراها.. ما الفائدة التي يمكن أن تعود عليه منها، لا يهمه كونه مجذوبًا أو عفريتًا أو أيًا ما كان.

ظل يفكر حتى نظر إلى الساعة فوجدها قد قاربت على الحادية عشرة صباحًا، انفزع لكونه قد تأخر على عمله؛ فهو يعمل

مديرًا لمكتب المحامي اللامع مراد الشيشيني، جلسة القضية ستبدأ اليوم خلال ساعة من الآن وكل الأوراق والأدلة في حوزته بعد أن سهر الليل في ترتيبها وتنسيقها كي يقدمها أستاذه في مرافعته اليوم.

بدل ملابسه بسرعة البرق مستقلًا دراجته النارية متخطيًا كل الحواجز ومخترقًا كل إشارات المرور حتى وصل قبل بدء الجلسة بخمس دقائق.

تنفس الصعداء حينما وصل في الميعاد والزمان المحدد، ركض إلى داخل القاعة حيث كان أستاذه في انتظاره وعلى وجهه ملامح الضيق قد بدت بوضوح، مد يده بكل ما يحمله من أوراقٍ، انتزعها منه بغضبٍ وأشار أنْ يجلس خلفه، دقائق و صاح الحاجب:

- محكمة

تقدم مراد الشيشيني حتى أصبح مُلاصِقًا للمنصة القضائية.. استعد القضاة كي ينصتوا لفصاحة لسانه وحِنكته، تعودوا منه دائمًا على مرافعة لا يشوبها شائبة، إستهل مرافعته قائلًا:

- ربنا افتح بيننا وبينا قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين

سيدي القاضي، حضرات المستشارين، أدرك جيدًا أننا كنا ولازلنا في ظرف من أصعب الظروف الذي يمر به وطننا الحبيب، القاصي والداني يعلم جيدًا حجم الخسائر التي تعرضت لها البلاد.. لكن اسمح لي عدالتكم أن أطرح عليك سؤالًا:

وأنت قاضي مخضرم ذو صولات وجولات في أروقة المحاكم.. أكبر سنًا من ذلك الوزير المتهم الملقى خلف تلك القضبان الحديدية، في لحظة إن انقلبت تلك القاعة رأسًا على عقب في ظرف استثنائي لم تلق له بالًا، مجهولون اقتحموا الجلسة، قتل من قتل وضرب من ضرب، وكنت مُهددًا أنت الآخر وقت الاقتحام، لكنك حاولت المنع والتصدي، حاولت وإن كنت لست المنوط الحقيقي بتلك الفعلة، إلا أنك مسؤول عن الرعية مسؤولية إدارية تامة، ولكن في طوفان الزحام لم يلحظ أحد الجهد المبذول، لم يلحظ كل ما فعلته من أجل حمايتهم.. ولكون الشيوع في الاتهام قد جعل المحقق مرتكبًا بعد فرار الفاعل الأصلي وجهله بكنيته؛ فلم يجد بد إلا اتهام موكلي لكونه الوحيد الذي لم يتوارى وظل ظاهرا للجميع، لكونه لم يهرب مثلهم، وبعد كل ذلك تم إلقاء القبض عليك بتهمة التقصير، أذلك هو العدل!! ذلك هو الملاذ!! أسلوب كبش الفداء انمحى من كافة البلدان إلا هنا، مازلنا نريد تحقيق عدالة زائفة، تهدئة لما يسمى بالرأي العام ونسينا قول الله تعالى "ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى.

يجلس حسين في الخلف يتابع أستاذه بشغفٍ، يحب سماعه رغم علمه في أغلب الظروف أنه يكذب، لكنه يتذكر دائمًا ما يقوله أستاذه بأن ذلك لا يعد من قبيل الكذب؛ لأن القانون لا يعرف سوى معطيات الأوراق ولا شأن له بأرض الواقع.

ظل ينصت إليه حتى انتهى من مرافعته، بعد قرابة الساعة، لملم أوراقه من أمام المنصة و جلس جانبه، مال عليه حسين ليهمس في أذنه:

ـ أحسنت يا أستاذ

إبتسم مراد ونظر أمامه مُنتظرًا الحكم النهائي، دقائق وخرج القضاة، نطق رئيسهم بالحكم بعد الديباجة قائلًا:

ـ حكمت المحكمة حضوريًا ببراءة المتهم من كل التهم المنسوبة إليه.. رفعت الجلسة.

قفز الجميع فرحًا إلا هو، تلك عادته لا يبدي لأحد أي تعبيرات من شأنها أن تعكس ما يكمن داخله من مشاعر.. في حين أن قلبه كان ينهشه القلق قبل أن يتقافز فرحًا بعد النصر، ثقة في النفس يصطنعها توكيدًا على مهارته أمام موكليه.

حمل حقيبته واتجه إلى الخارج محاطًا بكافة وسائل الإعلام الغربية والعربية، يمضي في طريقه دون أن يصرح لهم بثمة شيء، يحاول حسين اللحاق به بينما يحاول هو أن يفلت منهم كي يصل إلى سيارته، بالكاد إستطاع أن يخرج بنجاح دون أن يجبره أحدهم على التصريح، يعتقد دومًا أن لصمت المشاهير هيبة.

جلس حسين بجانبه ولا يشغل باله سوى تلك الورقة التي اشتراها من ذلك الرجل، يعلم جيدًا أن مراد مهووس بجمع كل ما هو قديم، خطر بباله أن يعرض عليه شراء تلك الورقة، أكم من

مرات رآه وهو ينجز صفقات بمبالغ طائلة من أجل بضع أوراق يهوى جمعها، إذا طلب خمسة آلاف جنيه بالطبع سيوافق، نظر إليه في تشكك من كون ما سيطلبه مبالغ فيه، يمكن أن يرفض، سيبيعها حتى لو دفع له مائة جنيه، قرر ذلك في نفسه وانتظر طويلًا ثم تفوه أخيرًا قائلًا:

- معي شيء أتيقن أنك إن رأيته لن تتركه.

نظر إليه قائلًا بمزحة:

- ومنذ متى وأنت تجلب لي الخير؟

مد يده وأعطاه ورقة اليانصيب قائلًا:

- ثمنها خمسة آلاف جنيه فقط

بمجرد أن لمسها مراد بدت في عينيه نشوة تشبه إلى حد كبير نشوة الانتصار في المبارزات، تحسس ملمسها وهو يصدق نفسه بالكاد.. لمعت عيناه قائلًا دون أن ينقطع عن فحصها:

- سأعطيك ما طلبت

شعر حسين بحالة من الانبهار لكونه سيحصل بتلك السهولة على مبلغ ضخم كهذا في ثوانٍ معدودة مقابل ورقة متهالكة دون تعب أو مشقة، ظلت توخزه نفسه كثيرًا، ليته طلب أكثر من ذلك، ومن فرط الانشراح أخبره بأنه يمتلك الكثير من مختلف الأشكال والأنواع.

طلب منه مراد أن يفحصهم فوافق على الفور، إلا أنه قد تحجج بأنهم في مكان آخر و حينما يجلبهم سيهاتفه كي يحضر ويطالعهم، وافق مراد و تركه وانصرف إلى منزله، جلس على سريره فاردًا قدماه وممسكا بالجريدة الورقية كي يطالع الأخبار اليومية بعد يوم عمل شاق قد كلل في نهايته بالنجاح، رغم التطور التكنولوجي الملحوظ ألا أنه يعشق القراءة الورقية و التي لم ينقطع عنها منذ سنوات، يرى في الورق ورائحته عبق خاص يحرك وجدانه نحو أمل يود أن يصل له إلا أنه لا يعرف ماهيته.

ذلك الشاب الأعزب الذي قضى طيلة حياته متذوقًا لمتاع الدنيا وشهواتها، يحب الخمر والنساء والسفر والمغامرة، أنفق كل أمواله على ملذاته التى لهث وراءها طيلة سنوات عمره، يعشق جمع الطوابع والأوراق الأثرية، يشعر بأن الحياة ما هي إلا ماض والماضي حين يمتزج بالواقع ينتج خليطًا لا يدرك لذته إلا هو.. فرح كثيرًا بورقة اليانصيب التي اشتراها من مساعده، اكتملت فرحته حين كان له السبق في الحصول عليها، لا يعرف الفشل ودائمًا ما يرى أن الحياة ما هي إلا سباق، لا مجال فيها للمركز الثاني.. إما الأول وإما الموت.

ترك الجريدة من يده وأغمض عينيه في محاولة للنوم استعدادًا للاحتفال ليلًا على طريقته الخاصة

ـ أرجوك أود الحصول على الجلسة الكهربائية اليومية

قالها برجاء للطبيب المعالج الذي ظل في دهشة مما طلبه، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، السكون قد خيم على المكان عدا أصوات أقدام الممرضات في طرقات المستشفى، كلما سمع صوت النعال يضرب الأرض ضربًا فيصدر صوت الطرقعة الممقوتة بالنسبة له، يشعر بقبضة المكان، قبضته موحشة، ظلمته كظلمة القبر، اليوم يكون قد مر عشر سنوات على وجوده هنا، حدود رؤيته لم تتعدى تلك الشجرة التي نبتت متجاوزة ذلك السور الخرساني، عين الطبيب كان يختبيء خلفها مرارًا مما سيفعله، إلا أنه ما باليد حيلة كما أخبره، فهي أوامر إدارية يتعاقب عليها الأطباء مهما على شأنهم أو صغر، إلا أن الطبيب لا يدرك أن ذلك لا يضيره، فبحوزته مخدرًا يجعله لا يشعر بثمة شيء من شأنه أن يؤلمه، ذلك المخدر لم يتوصل الأطباء إلى سره حتى الآن، ذكرى من أحبها حين الصعق يجعله يتحمل ما لا يطاق، يجعله ينتقل من مكانه إلى هناك، حيث الدفء الذي لم ينساه أبدًا، كلما إزداد الألم كلما إقترب منها أكثر كي يشعر بالحميمية، يقترب ويقترب، حتى يمارس معها علاقة كاملة في مخيلته، ينعكس عليه بأضعاف تأثير الحقنة المخدرة، تقتات روحه على ذلك كل تلك السنوات، الشيء الوحيد المحبب له في تلك العتمة، كل ما يؤذيه هو شعور ما بعد الجلسة، بعد أن ينتهي كل شيء، لولا أنهم أخبروه بأنه سيموت لا محالة إذا ظل على ذلك الجهاز طيلة العمر لفعل،

أزال الطبيب الأسلاك وتركه كالجثة الهامدة، حملوه إلى غرفته كالمغشي عليه، لا حول له ولا قوة، إستعاد وعيه تدريجيًا.. جاهد على النهوض من فراشه، حاول إلا أنه قد سقط أرضًا مرتطمة رأسه بالأرض بعنفٍ، فتح عينيه تدريجيًا، ذكريات مؤلمة له في ذلك المكان، لم تهجره أبدًا، كلما غافله الاسترخاء كلما تذكر كل تفصيلة فيها، أمسك بقبعته وقد وضع فيها بعض من بقايا طعامه، أخذ يأكل ما تبقى منه ثم أخرج منها سيجارًا يشتريه يوميًا ولم ينقطع عنه حتى في أشد الفترات الحالكة.

أخذ نفسًا عميقًا منه بعد أن مد يده وقام بتشغيل مذياع خشبي صغير من طراز قديم، يستمع إلى بعض من الموسيقى الخالدة، يأبى الاسترخاء حتى لا تزوره تلك الذكريات المفجعة مرة أخرى، ظل على ذلك الحال حتى قرر أن يتدلى إلى الخارج لعله يرتاح قليلًا من هوس ذلك الماضي.

يترنح النسيم بين ضفاف المدينة، تتسكع أصوات الساهرين في طرقات السراب، يحتفل مخمورًا وبين يديه عاهرة تتراقص على أنغام الشهوات بعد ليلة يطلقون عليها الليلة الحمراء، هم لا يدركون لما اللون الأحمر تحديدًا، قد تكون بيضاء أو صفراء أو حتى سوداء، لكن تلك الموروثات في أوطاننا كالعقيدة، لا يجوز الاقتراب منها أو التصوير، كعادته بعد أن يفرغ من شهوته يرافق

عاهرته إلى الشارع الرئيسي، يخرج النقود من جيبه ليطيح بها على الأرض كي تنحني لتلتقطهم، ومن غير العاهرة يمكنها أن تقدم على تلك الفعلة دون خجل أو خوف، يستمتع بذلك لأقصى حد، هل شعرت يومًا بإحساس بعض من ثمرات التين الشوكي وقد نزع عنها بائعها ردائها كي تبدو ذات ملمسٍ ناعم ورقيق، متحررة من هم كاد أن يفتك بها، هذا هو إحساسه تمامًا، أخذت المقابل وانصرفت، يشعر بألم حاد اتخذ من رأسه وطنًا، ود أن يحتسي بعضًا من الكافيين لعله يفيق من غيبوبته، لمح للمرة الأولى بطرف عينه مقهى صغير، يبدو كلاسيكيًا بعض الشيء، يتغلف بالزجاج من الخارج و ينيره بعض من الإضاءة الخافتة التي لا تكشف من يجلس داخله ولا تسمح لخارجه أن يختلس النظر، لحسن حظه أنه يقرب من ذلك المنزل الذي اشتراه خصيصًا في منطقة نائية كي يتخذه وكرًا لممارساته، قادته قدماه إلى هناك، فتح الباب وجلس على أقرب منضدة واضعًا رأسه بين يديه، شعر بشخصٍ يقترب منه، أشار بيده إشارةً غير مفهومةٍ لمن يقف أمامه، لم يتحرك، أشار مرة أخرى، يبدو أن النادل لم يعِ مقصده، برزت رأسه من مكمنها حتى استقر نظره عليها، تقف أمامه فتاة في الثلاثينات من عمرها، ترتدي تنورة قصيرة ذات لون أبيض ناصع ويلتف حول خصرها قطعة من القماش داكنة اللون مدون عليها اسم المقهى، شعرها يتدلى مداعبًا خصرها، وعيناها زائغتان بنيتان وكأنها استيقظت توًا من النوم، تلمعان لدرجة جعلته يظن

أن بريقهما هو من يشق طريق الرؤية بالنسبة له، عطرها يطوف محمولًا على أكتاف الرياح حوله وجسدها يشع نارًا من اقترب منه احترق، ظل ينظر إليها طويلًا وظلت هي في انتظار أن يطلب ما يحتسيه دون أن تنبس ببنت شفة كأحد القواعد الوظيفية في ذلك المكان، أدرك أخيرًا أنه لابد أن يفعل، نظر إلى اللوحة المعدنية المعلقة على صدرها والمدون عليها اسمها قائلًا:

- روان..

ثم صمت تمامًا.

أجابته قائلة بصوتٍ خافت:

- أنا روان في خدمتك.. أخبرني ما مشروبك المفضل؟

- مشروبي المفضل أن أرتوي من جسدك الملتهب.

صمتت لبرهة ثم أعادت عليه نفس ما قالته، مد يده وأمسك بيدها وجذبها ناحيته حتى سقطت من يديها أغراضها، قلم وورقة وبعض من النقود التي جمعتهم من رواد المقهى نظير ما احتسوه.

انحنت كي تجمع ما سقط منها، يشعر الآن باللذة المعتادة..

- الانحناء سمة العاهرات وفقط

قالها وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة المنتصر، تابع ابتسامته بطلب قدح من القهوة، أومأت برأسها كتعبير عن أنها قد سمعت ما طلبه، انطفأ البريق في عينيها وحل محله بعض من الدمع المختنق، شعر بغصة في قلبه من جراء فعلته، تلك هي المرة المرة الأولى

التي يشعر فيها بلسعة المشاعر الإنسانية، مرض عضال يوقن بأنه لن يشفى منه، طبيب ومريض في آن واحد، يشخص حالته إلا أنه يعجز دائمًا عن منح نفسه العلاج الملائم، هي أمراض مزمنة لا علاج لها ولا شفاء منها.. بذلك يقتنع ولن يتزحزح لوهلة عن ذلك الاعتقاد، يحاول التأقلم مع تلك الحياة.. هو يدرك تمامًا أنها حياة عادلة، لكل شخص نصيب مما ارتكبه، نحن نتاج خليط من ماضٍ سحيق وحاضر متهالك ومستقبل متشرذم، من منا يملك سجل ناصع البياض دون نقطة سوداء قد انعكست علي تكوينه! نقطة واحدة؟ ذلك مثال تعبيري عاجز، أما في حقيقة الأمر هم حزمة من النقاط تتشح النفس بسوادهم.

مضت لحظات وظل هو على حالته يعبث بما وضع أمامه على المنضدة دون جدوى تذكر..هكذا دائمًا ما يكون حاله حينما ينتظر شيئًا، يمل الإنتظار، أفاق على صوت الفنجان بعد أن لامس سطح المنضدة الرخامي، أشعل سيجارة وهو يراقبها من بعيد بعد أن انصرفت، انزوت في أحد أركان المقهى لبرهة ثم عاودت العمل من جديد.

لم يحيد بنظره عنها طيلة جلوسه، احتسى قهوته سريعًا ثم ترك حسابه و انصرف.

انتهت روان من عملها المرهق.. إلا أن لذته تطغى على أي شعور بالامتعاض، بدلت تلك الملابس الرسمية بملابسها الحياتية.. البنطال الجينز والتيشيرت، رغم بساطتهما إلا أنها لا

تحتاج إلى أكثر من ذلك، رقتها وجمالها يجعل من البساطة أناقة لا مثيل لها ولا وصف، كم تحب ذلك العمل من أجل ارتداء تلك التنورة القصيرة التي لا تفارقها، دائمًا ما تمنحها الثقة بأن مظهرها على ما يرام، استلمت راتبها اليومي واتجهت إلى حديقة صغيرة بجوارالمقهى، يبدو من خطواتها أنها تحفظ الطريق عن ظهر قلب.. تدرك جيدًا مقصدها، تدلت على بضع سلالم للأسفل حتى وصلت إلى شجرة عملاقة قد حفرت عليها اسمها في أول يوم عمل لها منذ سنوات، حين طردها المدير بعد أن بصقت في وجه أحدهم حين حاول أن يمسك يدها.. لم ينصفها المدير ولم تساندها الحياة، بل عادت إليه مكسورة الخاطر مذلولة الوجدان.. طالبة العفو حتى تعود لمباشرة عملها، حين طردها في ذلك اليوم لم تجد سوى تلك الحديقة كي تجلس فيها وتبكي في محاولة لتفريغ شحنة الحزن المتدفق محل الدم، حفرت اسمها على تلك الشجرة كي تجد شاهدًا واحدًا منصفًا وعادلًا؛ فالشجر لا يشهد بالزور ولا يكذب مطلقًا، البشر فقط هم من اكتسبوا تلك الصفات، جلست على الأرض واتكأت على تلك الشجرة، النسيم البارد حاوطها من كافة الاتجاهات؛ فأخرجت من حقيبتها شطيرة التفاح التي تحبها، تقبض راتبها اليومي نقدًا بجانب فطيرة تفاح مخصومًا منه ثمنها، اعتادت على ذلك يوميًا، رغم قسوة الروتين إلا أنه لا ملاذ من الاستمتاع به أحيانًا حينما يكون الفرار مستحيلًا، قضمت

قضمة ضئيلة وما أن همت على الثانية حتى سمعت صوتًا أتى من جانبها قائلًا:

- أتحبين شطائر التفاح؟

أخذت قضمة أخرى دون أن تلتفت لحديثه، اتكأ على الشجرة هو الآخر بعد أن جلس بجوارها، مد يده سالبًا منها ما تأكل كي يتذوقه ثم أعادها مرة أخرى

- طعمها لذيذ

قالها بعد أن أشعل سيجارة؛ مدت يدها لتلتقطها منه، أخذت نفسًا عميقًا ثم أطاحت بها بعيدًا.

قال دون أن يلتفت لفعلتها:

- أمتلك منزلًا يبعد عن هنا بضعة أمتارٍ، يمكننا أن نفعل فيه ما يحلو لنا في مقابل ما تريدين، لن أبخل بشيء.

نطقت للمرة الأولى قائلة:

- تمتلك كمًا من الوقاحة لم أر مثيلًا له في حياتي، هل تعتقد أن كل النساء بتلك القذارة، من له اليد العليا في العبث بمخيلتك ليرسم تلك الصورة الخبيثة.

تعالت صوت ضحكاته حتى ترددت في الأفق الساكن من حوله ثم تابع قائلًا:

- روان، فتاة في الثلاثينات من عمرها تعمل نادلة في مقهي بمنطقة مريبة ومطلوب مني أن أفترض حسن النية بأنكِ تعملين بشرفٍ، يا لها من سذاجة.
- نعم أعمل بشرف على الأقل أتربح وأنا أقف على قدميّ دون انحناء، الانحناء سمة العاهرات وفقط، تلك العبارة أنت من نطقت بها منذ قليل.

قالتها بعد أن نهضت من مجلسها وأعطته ظهرها وتركته في جلسته وحيدًا لتشق طريقها الذي لا يعلمه هو.

ركل بقدمه حجرًا ملقى أمامه وأغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا.. لا يدري لما انزعج، بامكانه أن يتصل حالًا بأخرى تكون له أنيسة في ليلة باردة كتلك، أخرج هاتفه وأجرى اتصالًا قائلًا:

- حنان، أمامك نصف ساعة من الآن كي تكوني على سريري.

وأغلق الهاتف دون أن يسمع ثمة رد بموافقة أو برفض

تلك هي الفتاة الوحيدة التي أعطاها نسخة إضافية من مفتاح المنزل المشترى خصيصًا من أجل ذلك، يثق فيها رغم كونها عاهرة، كما أنها هى الأخرى لا تتقاضي منه أي أموال مقابل المتعة.. الوحيد الذي تفعل معه ذلك، لا تعصى له أمرًا ولا تتناقش معه في شيء، يشعر بأنه عثر في داخلها على الراحة التي ود أن يجدها في حياته، وصل إلى المنزل؛ فوجدها في انتظاره، شعرها الأشقر دائمًا ما يمنحه الثقة في نفسه.. مجرد أن هناك شقراء

أربعينية في انتظاره على سريره يشعره بأنه يشغل حيزًا من فراغ في تلك الحياة، تمسك بسيجارتها مطبوعًا عليها من أحمر شفاهها، وضعتها في فمه كي يتذوقه كما يحب دائمًا، استلقى بجوارها على السرير و أمسك بسيجارتها، أخذ نفسًا عميقًا ونفث دخانها بقوة في وجهها ثم نظر إلى السقف وظل على ذلك، سحبت منه سيجارتها، أخذت نفسًا عميقًا هى الأخرى ثم قالت:

- من هي؟

حاد بنظره ليستقر عليها قائلًا:

- ماذا تقصدين؟

- من تلك الفتاة التي تؤرقك، ملامحك يبدو عليها خطب ما

كان يفكر فيما فعلته تلك الفتاة، من أين عرفت أن هناك خطب ما يؤذيه؟ روان، تلك الفتاة التي وبخته ونالت منه في لمحة من الزمن، سرح قليلًا ثم عاد مرة أخرى إلى واقعه حيث حنان التي ظلت تحدق فيه طيلة فترة سفره إليها قائلًا:

- كيف عرفتِ بذلك الأمر؟

- إذًا هو حقيقة

- لا أنا فقط أستفسر عن السبب الذي جعلك تتفوهين بتلك الجملة الحمقاء.

لم تكترث لم قاله بل همت به وقبلته؛ فصاح فيها:

ـ حنان.. لا.. لا أريد شيئًا الآن.. لا أريد سوى حضنكِ..

هل بامكانكِ معاملتي كطفل صغير لم يبلغ بعد؟

ابتسمت لكونها قد تفهمت الأمر، الرجال دائمًا ما يشتهون العودة لنقطة الصفر ولو لدقيقة من الزمن، يشتهون معاملة الطفولة، من مفارقات الحياة أن الطفل يود لو يكبر عدة أعوام والرجل يود لو يعود طفلًا مدللاً مرة أخرى.. لا شيء سوى العناق واللهو في أحضان امرأة تحنو بيديها و فقط دون باق الجسد، تبصره بقلبها دون عقلها، تحدثه في تفاهات العصر وأحواله، قسط من الراحة لا يستقيم الحال بدونه، لكن كم من رجلٍ يمتلك الجرأة على العودة وكم من امرأة تمتلك الإدراك الكافي كي تحقق ما يتمنى دون غضاضة، تلك المرأة من القلائل المدركات لمجريات الأمور.

www.maktabbah.blogspot.com

ضمته إلى صدرها بقوة، مسحت على شعره بلطفٍ، طبعت قبلة على جبينه، أشعلت سيجارة ووضعتها في فمه، شعر بأن الخدر يسكن جسده كله، لم ينطق بكلمة كما لم تنطق هي الأخرى، تركته يغوص فيما هو فيه بأريحية وتركت نفسها تستمتع بلحظة صفاء قلما تحدث بين عاهرة ورجل.

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

تحاول قطرات المطر جاهدة على أن تعبر من بين الشقوق، تجلس روان في أقصى سريرها، محاولة منها لتفادي المياه التي استطاعت أن تخترق السقف الخشبي وتنزلق إليها لتداعب وجهها برفق، شيء من القهر يمتزج بتكوينها، الغرفة أضيق من تنفسها الذي بات ثقيلًا، في ذلك الحي التي تقطن فيه لا يتعدى مساحة المنزل الواحد أربعين مترًا، متلاصقين بجوار بعضهما البعض، إذا عطس أحدهم وجب على الجار أن يرد عليه بيرحمكم الله، ليتها تسكن في إحداهم، راتبها لم يكفِ سوى إيجار غرفة فوق السطح، اشتد المطر، تساقط بقوة، نحن لا نشعر دائمًا في منازلنا الأسمنتية ببطش المطر وقوته أما ذلك الهيكل البنياني الهش يعجز عن التصدي وكأنه يتلقى ضربات من أسلحة فتاكة.

المطر هو المطر في تكوينه يكمن الفارق فيما نحتمي، اتسعت الثقوب لتفسح المجال لكميات أكبر من المياه أن تتسرب إلى الداخل في ذات اللحظة التي اتسعت فيها ثقوب روحها ليتسلل الخوف إليها دون رادع، نهضت مسرعة لتجلب بعضًا من الأواني كي تحجب عنه القدرة على استيطان الأرجاء، ملت من تلك الفعلة كل شتاء، صرخت صرخة مدوية قائلة:

- أيها المطر أنا لا أخشاك.

خرجت مسرعة إلى الخارج حيث لا غطاء ولا حامي، باتت أسفل المطر مباشرة، رفعت ذراعيها إلى أعلى كي تستقبله على كامل جسدها، تنظر إلى السماء في لحظة عتاب، إبتل كل

ما ترتديه، تخللها المطر بإرادتها ليروي أرضًا بورًا لعله يطرح، أيضًا المطر هو المطر في تكوينه، الفارق في طريقة استقباله، منا من يستقبله بعين متأملة من خلف نافذة المقهى الزجاجية أثناء احتساء مشروب ساخن، أما هي فتستقبله دون حجاب يحميها من صواعق السماء.

صاحت بصوت جهور قد دوى في الأفق:

ـ أنا لا أخشاك

هدأ المطر، انسحب تدريجيًا وكأن صرختها باتت رادعة، جلست على الأرض بعد أن أُنهك جسدها من شدة المقاومة، اتكأت برأسها على الجدار، عيناها تقاوم الموت كل دقيقة، دائمًا ما يخاطبها حدسها بأنه قريب جدًا، حياتها لا تخلو من المقاومة، تقاوم الحياة بشتى صورها، البشر والمطر، حتى حبيبها لم يُستثنى، شعرت بيد تربت على يدها، وصدر دفنت فيه رأسها، وهمس بصوتٍ خافت في أذنها:

ـ أنا هنا لا تخافي.

احتضنته بشدة، تمسكت به وكأنه ملاذها الأخير، تشعر دائمًا بأنه السكن والسند، يظهر في كافة الأوقات التي تكون بحاجة فيها إليه، يلوح لها في الأفق دائمًا دون طلب أو نداء، خبأت جسدها بداخل ذراعيه كي يحميها من برد الشتاء، منذ دقائق كانت دون حامٍ حتى الألواح الخشبية أبت أن تلعب ذلك

الدور البطولي، إلا هو حاميها ومنقذها، قالت بصوت خافت هى الأخرى:

- كيف يزورني الخوف وأنت هنا.

طبع قبلة على شفتيها تشبه الهمس في ملمسها وأحاطها بذراعيه كي تنغمس داخله أكثر، اختفى جسدها عن الأعين، إلا عينيه قد طمعت في رؤيتها منفردة، ارتفعت بنظرها لأعلى كي تبصر تفاصيل وجهه قائلة:

- جسدك أيضًا قد ابتل، منذ متى وأنت هنا؟

أجابها:

- منذ بداية الحرب.

وتابع بإبتسامة:

- يا صغيرتي.. أنا لا أخشى الحرب بقدر ما أخشى الحب.. رغم يقيني من أن عناق الرصاص لا سبيل لعناق بعده.. مطلقًا.

أتعرفين، رتابة الحياة وفقرها بالأخص كاد أن يفتك بي، إلا أنه منذ أن ساقني القدر إلى تلك الغرفة بجوارك قد تبدل كل شيء، كنت دائمًا أنتظر ذلك حين يشتد المطر، أنتظر لحظة المبارزة الحقيقة، أجلس خلف تلك النافذة المتهالكة كي أتفحصك، لا أدري لما كنت أجلس خلفها، إلا انني كنت دائمًا أشعر بأنه لابد أن يكون بيني وبينك حجاب حتى وإن كان ممزقًا لا يحمي، حاجز

وجداني لا مادي، وحين قررت تحطيم ذلك الحاجز وإعلان نهايته أدركت كونه مفتوحًا منذ البداية، لم يغلق قط، خرجت إليكِ، إلى الحياة، وكانت البداية، بداية قصة لا يعلم نهايتها إلا الله.

قالت بعد أن وضعت يدها على فمه محاولة اسكاته:

- أرجوك لا تكمل، لا يهمني النهاية الأهم هو ما أنا فيه الآن.

بدأت السماء في إصدار الهمهمات تمهيدًا لصاعقة من البرق، السحب تلتحم تمهيدًا لجرعة أخرى من الحياة، حملها بين يديه قائلًا بابتسامة:

- المطر قادم مرة أخرى وحينها لن أتحمل ستكون نهايتي بالطبع

أدخلها غرفتها وحاول تصليح الألواح الخشبية كي تمنع إنزلاق المياه، بذل جهدًا كبيرًا حتى نجح في النهاية، استلقت على سريرها وجلس هو بجوارها، سرح بخياله في قصتهما، يحبها منذ سبعة أعوام، منذ أن وطأت قدماها تلك المنطقة، ذلك الشاب الفقير القاطن بغرفة فوق السطح أحبها في كل معركة كانت تخوضها ضد المطر، الفقراء للفقراء، هكذا كان دائمًا ما يقول لها، هما الاثنان لا حول لهما ولا قوة، عرض عليها الزواج للمرة الألف إلا أنها دائمًا ما كانت تتحجج بالفقر، كيف تنجب أولادًا في عالم بغيض لا يدرك للرحمة عنوانًا، يشعر بأنها حجة ساذجة، والغريب في الأمر أنه يوقن من حبها له، لا يعرف لها أمًا

ولا أبًا، قيل أنهما توفيا في حادثة مروعة، تربت على يد خالتها حتى حملتها قدماها ثم فارقتها بعدما سلبها الموت منها، باتت وحيدة، نظر إليها فوجد أن النوم قد غلبها، كم يشعر بأن التكوين الملائكي يلبسها في تلك الحالة، اقترب من شفاهها وبدأ يتحسس جسدها بيده، انتفضت من نومها وقفزت من أعلى السرير قائلة:

ـ عادل.. أرجوك لا.. لا تفعلها.

كم يتملكه الضيق في كل مرة تنطق بتلك الكلمات اللعينة، حتى القبلة لا يفوز بها، في ذلك ظلم لكل جوارحه، إلا أنه يصبر على حبها كما يصبر على الفقر، الصبر مفتاح الفرج وقد صبر كثيرًا بلا أية نتيجة تذكر، الصبر قد يولد الملل قبل قدوم الفرج والروح إذا ما ملت ماتت، هو يحب الحياة رغم مشقتها، إلا أن السعي وراء حبها له مذاق يجعله يصبر دون ملل، داعيًا الله في كل لحظة أن يظل كذلك دون إنهيار.

تشجع حسين وتدلى إلى ذلك الرجل المسمى ببائع الحظ ليحصل على بعض من الأوراق الأخرى كي يريها لمراد لعله يشتريهم ويحصل على بعض من المال الوفير بدلًا من تلك الملاليم الشهرية.

قرع الباب بلطفٍ شديدٍ وانتظر طويلًا دون أن يفتح أحد، زاد من حدة القرع تلك المرة، إذ به يجد الباب مفتوحًا من الأساس،

دفعه ببطءٍ شديد وهو يختلس النظر من ذلك الفراغ الذي يتسع تدريجيًا كلما فُتح الباب أكثر، تقدم الى الداخل دون أن يعترضه أحد، صاح متسائلًا:

ـ هل من أحد هنا؟

لم يلق إجابة، نظر أمامه فوجد بعضًا من الأوراق التي جاء خصيصًا من أجلها، ملقاة على المنضدة كما هي، أرشدته نفسه بأن يأخذهم ويمضي، لن يدرك ذلك المعتوه أنه قد سرقهم خاصة أنه يمتلك الكثير منهم، جمعهم كلهم ووضعهم في قميصه ومضى راكضًا إلى الخارج بعد أن أغلق الباب كما كان بنفس الوضعية، صعد إلى منزله منتشيًا، هاتف مراد تليفونيًا وأيقظه من نومه، طلب منه المجيء كي يريه ما يملك من أوراق، لم يتردد مراد للحظة، دقائق و استقر بسيارته أمام المنزل، صعد إليه حتى يستطيع فحص كل شيء بأريحية، بينما كان يخشى حسين النزول حتى لا يعترضه بائع الحظ، يخشى من أن يفضح أمره، بمجرد أن تجاوز مراد عتبة الباب أغلقه حسين بسرعة البرق بعد ان اختلس النظر يمينا ويسارا كي يتأكد من عدم وجود ثمة شخص في الخارج، لم تمر الثوان حتى سمع صوت طرق عليه، إنتفض جسد حسين ثم طلب من مراد أن يفتح الباب، نظر إليه في عدم فهم قائلًا:

ـ ما خطبك؟

قُرع الباب بشدة، اختفى حسين من جانبه مختبئًا خلف الأريكة، فتح الباب ببطء شديد، بمجرد أن رأى مراد هيئة من يقف خلف الباب ابتلع ريقه ثم قال:

- مرحبًا هل بإمكاني المساعدة؟

أزاحه من طريقه ثم تقدم إلى الداخل باحثًا في كافة الأرجاء.

اعترضه مراد قائلًا:

- يا سيد..

ثم سكت لثوانٍ وتابع:

- أناديك بسيد ماذا؟ من أنت؟

قال بعدما حاد بنظره ليستقر على حسين والذي حاول الانكماش أكثر كي لا يظهر على مرمى بصره:

- نادني ببائع الحظ.

وتابع بعدما اتجه إليه وأمسك به في مخبئه:

- ذلك الاسم يروق لي

- يا سيد بائع الحظ، ما خطبك ولماذا تمسك به هكذا؟

جلس على الأريكة وأمسك بورق اليانصيب والطوابع القديمة المسروقة منه قائلًا:

- ذلك الحقير قد سرقني، هذه أوراقي، تسلل إلى المنزل خلسة وسرقهم.

- اتركه وسأشتريهم.. بكم تبيعهم؟

قالها مراد وهو يتفحص ذلك الجمال الذي يراه بعينه.

أجابه بائع الحظ:

- الورقة بخمسة

- خمسة آلاف للورقة.. مبلغ مبالغ فيه.. أنا سأشتريهم جميعهم

- كفاك مزاحًا.. قرشًا وليس ألفا

- إذًا؟ أنت من تمزح الآن.. كم سعر الورقة النهائي؟

- خمسة قروش

- هل تتكلم بجدية!

- نعم

نظر مراد إلى حسين باشمئزاز ثم قال:

- إذًا كل ذلك لي، تفضل وهذا لك

أخرج من جيبه ألف جنيه وأقسم بأنه لن يأخذ ما تبقى مهما كان

ابتسم بائع الحظ في سعادة قائلًا:

- أمتلك الكثير أيضًا لكن ليس بحوزتي الآن، هل من الممكن أن تترك لي عنوانك ولا تجهد نفسك في المجيء، أنا سأحضرهم إليك في مقرك، غادر مراد المنزل منتشيًا من تلك الصفقة التي أسعدته كثيرًا وهو يتمنى في نفسه:

- ليت الحياة كلها تكون بتلك السهولة، حينها بامكاني أن أحكم العالم.

خرجت روان من المقهى بعد يوم عمل شاق، أغلقت الأبواب وراجعت على كل شيء؛ فوجئت بأن عادل ينتظرها في الخارج يستند على سيارة تقف أمام المقهى، بمجرد أن رأته حتى ركضت باتجاهه وارتمت في أحضانه، طال عناقها بينما يبدو عليه ملامح التيه، نظرت إليه قائلة:

- ما بك يا عزيزي.. لم يحدث سابقًا أن انتظرتني بالخارج

أجابها بنبرة مهزوزة:

- لا شيء.. افتقدتكِ كثيرًا

بادلته بأنا أيضًا، تشعر بأن هناك خطب ما في صوته كالعادة، ملامحه الجادة الحادة الحزينة قد أصبحت جزءًا من تكوينه، نتاج صراع مع الحياة يكون فيه الخاسر دائمًا، أمسكت بيديه وجذبته وبدأت في الركض باتجاه الحديقة، استقروا بجوار الشجرة، طلبت منه أن يمسك بها كي تتسلقها لأمر ما، غريب ذلك الأمر بالنسبة له، سألها عن السبب أخبرته بأن يفعل دون استجواب.

تمسك بها جيدًا وبدأت في التسلق حتى وصلت إلى اسمها المحفور وكتبت بجانبه:

- عادل.. حين يكتب نهايتي في يوم ما عليك أن تعتني بتلك الشجرة فليس لها سواي.

تدلت وارتفع بنظره ليقرأ ما كتبت، تشبث بها قائلًا:

- لما تقولين ذلك يا صغيرتي؟ وهل تعتقدين بأن الحياة يمكن أن تستمر بدونكِ؟ على الأقل بالنسبة لي سأكون شريدًا، صدرك موطني وعيناكِ ترياق الخلود، تشع نورًا يشق السديم لينير خطواتي، وصوتكِ كالقيثارة في جوف الجبل، ويداكِ تحنو كمداعبة النسيم لأطراف الشجر المنهك، هل بعد فقدان كل ذلك يمكن لصدري أن يتنفس ليفسح الطريق لدقيقة أخرى في حياة ليست كالحياة؟

قلبي وجنوني وعاطفتي وشعوري وحنيني و رضاي وسخطي وكل شبر خصب في تكويني تحت سطوة قبضتكِ، عضي عليهم أكثر ولا ترتخي إلا وأنا بجوارك في قبرك.

مددت جسدها وألقت برأسها على قدمه، انزلقت منها دمعة إمتنان دافئة، تنظر إلى السماء كي تتابع النجوم بشغف، الغيوم قد انزاحت معلنة للأعين ما توارى خلفها من زينة، سرحت بعيدًا حتى وصلت إلى هناك، إلى حياة كانت تود أن تكون حياتها، تخشى من أن تتملك النقمة منها، تجاهد على أن ترضى، قالت في بغتة:

- أود أن أطير

قال في سعة صدر:

- وما المانع؟

- المانع أني لا أمتلك جناحين.

- ليس عائقًا البتة.

قالها عادل بعد أن نهض من مكانه وحملها فوق كتفيه ليطوف بها أركان الحديقة، رغم أنها لا تتشبث به جيدًا إلا أنها لم تخف من السقوط أبدًا، كانت تضحك كطفل صغير يقذف إلى السماء ثم يُلتقط قبل لحظة الارتطام، ضحكة نقية رغم الخوف المختلط؟ السر يكمن في الثقة العمياء، لكون هناك يد ستتمسك به وتشكل درعًا بينه وبين الأذى، هي تؤمن أنه لن يتركها تسقط أبدًا، تعالت ضحكاتها حتى امترجت بصوته وهو يصيح قائلًا:

- أود الزواج منكِ.

تبدلت الضحكة بانزعاج وتبدلت ملامح البهجة بالضيق، كل المتضادات حلت محل المرادفات في وقت لم يتعدى الثوان، طلبت منه أن يفلتها كي تلمس الأرض وما أن لمست قدماها الأرض حتى أخبرته بأنها على أتم الاستعداد لذلك لكن هناك شرطًا واحدًا، بالطبع وافق قبل أن يسمعه رغم يقينه بأن تلك العلاقة لا يملى فيها شروط، كان طلبها الوحيد أن يصبر عليها مهما طال الانتظار، جلس على الأرض واتكأ برأسه على الشجرة مرة

أخرى بنفس الوضعية، صمت قليلًا وبدا على ملامحه أن التفكير قد أخذ حيزًا لا بأس به من روحه، أجابها دون أن يرفع عينه:

- موافق رغم صعوبة الأمر إن كان ذلك مسلكًا للهروب من واقعي.

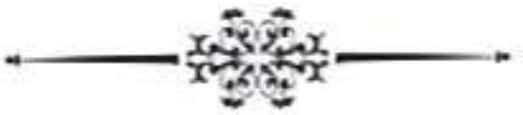

الفصل الثاني

المطر يهطل، قالها بعلو صوته كي يحث جميع من معه في الغرفة بالمستشفى على المثول أمام النافذة كي يتأملوا جمال قطراته وتناغمها، رغم الضيق إلا أن هطوله يشعره بالاتساع.

كان الجميع يفعلون كما يفعل، يقلدونه تمامًا، اعتادوا على ذلك، هو الوحيد بالداخل الذي يفعل حركات لا يدركون لها معنى، لكن مجرد تقليدها يشعرهم بالارتياح، مد يده من النافذة بعد أن فتح كفه للماء كي يستقر عليه ثم شرب ما في يده من قطرات، تلك الفعلة تشعره بالارتياح، كلهم فعلوا كما فعل، إلا أن أحد المرضى حديثي القدوم قد قطع حالتهم بصريخ حاد، هرول أطباء الطوارئ سريعًا باتجاهه إلا أنهم لم يستطيعوا اللحاق به، فقد كان أسرع من ردة فعلهم حين قفز من النافذة المفتوحة، نظروا جميعهم إليه وهو جثة هامدة في رعب محقق بينما صاح أحد الأطباء:

- قلنا وحذرنا ألف مرة ألا تُفتح تلك النافذة مهما كان السبب، من فتحها؟

انزوى في ركن من أركان الغرفة حينما أشاروا جميعهم باتجاهه، بينما كانت إشارة الطبيب مختلفة بعض الشيء، أمسكوه جيدًا وجذبوه باتجاه غرفة فارغة تمامًا، قذفوا به داخلها وأغلقوا الباب. إنها كالحبس الانفرادي، يُحبس هنا كل من كان خطرًا على المرضى أو على سلوكهم، هم اعتبروه كذلك رغم أنه لم يقصد أبدًا الايذاء، كان مقصده طيبًا، كان يود أن يكشف لهم أن بالحياة ما نستحق أن نحيا من أجله، نهض من على الأرض، بدأ يجول بنظره في كافة الأرجاء، في تلك الغرفة هو لا يحتاج لأن تدور عيناه كثيرًا، يمكن أن يكشفها كلها بنظرة واحدة:

- أين النافذة هنا؟

ظل يرددها حتى شعر باختناق حاد، أمسك برقبته وظل يسعل حتى كاد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، على تلك الأريكة اللعينة يتذكر كل ذلك، يؤلمه ذلك الذي ألقى بنفسه من النافذة بسببه كما أخبروه.

لم يكن ذلك مقصده أبدًا، كلما جال بخاطره ذكراه كلما تذكر تلك الغرفة الممقوتة، ظل بمفرده فيها كثيرًا، على جدرانها قد نقش الكثير من العبارات التي جسدت حالته حينها، كان يدرك أن الكلمات ليس بوسعها أبدًا ان تصف حالته المذرية لكنه كان يكتب لعله يحن أو يئن، كان يود فقط أن يشعر، كان

يريد ألا ينطفيء كل شيء داخله، كان يود الاحتفاظ ببعض من الأمل رغم تجرع المرار، نفض عن نفسه غبار الذكريات و بدل ملابسه متجها إلى خارج المنزل لزيارة مهمة كان ينوي عليها اليوم

يجلس مراد على مكتبه في الصباحِ الباكر، ثلاثة أيام وهو على ذلك الحال، بعض من نسماتِ الصباحِ البارد تسللتْ إلى الداخل، يراجع أوراق قضية سيترافع في جلستها بعد ساعات، قضية قتل إن إستطاع تبرئة المتهم سيكون من نصيبه مبلغ خمسة ملايين جنيهًا بخلاف الهدايا العينية، يدرس تلك القضية يوميًا حتى مل منها، لم يذق طعم النوم منذ أيام، كلما عاد إلى منزله لا ينشغل بسواها، إستحكمت حلقاتها لدرجّة انمحت فيها الثغرات القانونية كافة، كل ما درسه وكل الخبرة التي اكتسبها لم تكن له عونًا ولا مرشدًا.

قطع تلك الحالة صوت الهاتف؛ فضغط على زر قبول المكالمة قائلًا:

- مرحبًا بك يا أبي، الوقت مبكر جدًا على ذلك الاتصال، ما بك؟

أجابه بصوتٍ يغمره السرور:

- زوجتي حامل.

صمت للحظات بعد أن انتابته صدمة أخرى، زوجة أبيه قد حملت منه وقد تعدى السبعين، طفل صغير قادم إلى الحياة، بل إلى حياته هو تحديدًا كي يناصفه ميراث أبيه، ما كل ذلك الهراء؟

أجابه منفعلًا:

- حامل.. كيف حدث ذلك يا أبي؟

قال والده بهدوءٍ تام:

- إرادة ربك، أشعر بأنك لست سعيدًا.

زوجة أبيه، تلك السيدة التي طالما كرهها، فنانة مشهورة تزوجته ليس من أجل شيء سوى المال، كيف لمثلها أن تحل محل أمه التي لم يرها من الأساس؛ فمنذ ذلك الحين وهو يكن لها كل معاني البغض والكراهية، وجودها لن يطول، بشرية ستموت عاجلًا أم آجلًا، إلا أنها ستخلف وراءها ما يعكر عليه صفوه، يكن في صدره أيضًا بعضًا من مشاعر الكره لوالده، نبتت تجاهه حين تزوج بعد أمه، كيف فعل ذلك بعد قصة حبه العنيفة مع والدته التي دائمًا ما يقصها عليه! احتقره منذ ذلك الحين، مشاعر اتصلت ببعضها البعض لتزيده همًا وغمًا.

نطق أخيرًا بتهكم بعد فترة صمت:

- مبارك يا أبي، ابن لك في الطريق وقد تعديت السبعين

وأغلق الهاتف دون أن ينتظر ردًا، قرر أن يغادر مكتبه ليستنشق بعضًا من الهواء، حمل ملف القضية على يده وارتدى

الجاكت ثم فتح باب غرفته تمهيدًا للمغادرة، إلا أنه قد ارتعد مما رأى، بائع الحظ يجلس فى صالة الانتظار بمكتبه على كرسي قد وضعه في المنتصف مشعلًا، سيجار وواضعًا ساق على ساق، ناظرًا إلى السقف وهو ينفث دخانه بقوة كي يصل إلى الأعلى فيلامس أقصى نقطة ممكنة، تثبت مراد مكانه متجمدًا وكأنه لوحٌ من ثلج، تكلم بائع الحظ قائلًا:

- سيدي أنتظرك هنا منذ وقتٍ طويل.
- أهلًا بك.. لكن ماذا أتى بك باكرًا هكذا؟
- هل نسيت ما اتفقنا عليه؟ معي من الأوراق ما سيروق لك
- ليس الآن أرجوك، لست بالمزاج الذي يسمح لي بذلك
- اسمح لي أن أتدخل فيما لا يعنيني، هل ما أنت فيه بسبب قضية تعكر عليك صفوك أم بسبب مكالمة أبيك؟ أعرف أنك ابن رجل الأعمال المعروف نبيل الشيشيني، قرأت اسمه مرارًا في الجرائد الرسمية.
- هل تتنصت عليَّ؟
- سمعتك تحدثه ولم أكن أقصد ذلك.
- ومن أين عرفت بأمر القضية؟
- أية قضية؟ أنا أتحدث في المطلق، من الواضح أنك تناسيت كونك محام.. شيء بديهي يا عزيزي

www.maktabbah.blogspot.com

- ماذا تريد الآن؟ معذرة عندي جلسة بعد قليل ومشغول جدًا، يمكن أن نلتقي في المساء.
- هل بامكاني الاطلاع عليها؟
- على ماذا؟
- القضية.

لم ينتظر أن يوافق أو أن يرفض بل مد يده وسحب الملف من بين يديه، ظل يتمعن فيه قرابة الربع ساعة بينما يقف مراد مذهولًا مما يجري، بعد فترة أغلق الملف وأعطاه إياه ثم عاد إلى مجلسه مرة أخرى قائلًا:

- امتلك مفتاح تلك القضية الموصدة، في قضيتك اليوم ستنتصر، ستحصد الأموال والشهرة منها، الحل عندي.

إن وددت الانتصار لا عليك سوى طلب تأجيل القضية في جلسة اليوم وفي الجلسة القادمة سيكون دليل براءة موكلك في يدك وفي الليل سيكون لنا لقاء آخر.

قالها ثم استدار متجهًا إلى الخارج تاركًا دخان سيجارته يداعب وجه مراد، كيف لهذا الرجل أن يتجرأ على اقتحام خصوصياتي؟ كيف تملكته الجرأة على فعل ما فعله وما دخله بالقضايا وما شأنه؟

- مخبول ذلك الرجل.

قالها قبل أن يتجه إلى قاعة المحكمة وهو في حالة قلق شرسة لا يستطع ترويضها، للمرة الأولى التي يذهب فيها للمرافعة ولا يمتلك ثمة دليل واحد للبراءة، يلعب بالنار، تراوده الشكوك، إن خسر القضية سيخسر كل شيء، والفوز بها ترف عظيم، داعبه ما قاله ذلك الرجل غريب الأطوار- كما يسميه- جِديًا في تلك اللحظة، يحب المال حبًا جمًا، شهوة الشهرة والمال، في تلك القضية لا مفر من الانتصار، التجربة لن تضر لا سيما وأن التأجيل لا مفر منه. وطأت قدماه أرض المحكمة، دخل إلى القاعة مُمسكا بأوراق القضية وعلى وجهه علامات السكون والترقب، دقائق وصاح حاجب الجلسة:

- محكمة

يتصبب عرقًا، بماذا سيدافع، الدفاع ليس بإمكانه أن يدافع، فضيحة في أروقة المحاكم. نودي على رقم القضية وأسماء المتهمين.

- فليتفضل دفاع المتهم

قالها القاضي وانتبه لها مراد جيدًا، يخطو خطوات متعثرة ببطء شديد، قدم باتجاه المنصة القضائية وقدم أخرى تود أن ترسي في الخلف.

أخذ يقلب في صفحات القضية بينما ينتظر القاضي حديثه ثم قال أخيرًا بعد فترة من العبث:

- سيدي القاضي، حضرات المستشارين، أطلب تأجيل القضية لمدة حتى لو قصيرة لكون هناك دليل قاطع على براءة موكلي، أيام وسأحصل عليه، لا أطلب سوى التأجيل، هل للمحكمة أن تستجيب؟

أقبل المساء على روان في ذلك المقهى الذي يحتل في قلبها مكانة عظمى، تود أن تمتلك مثله، كم تمنت أن تجلس على مقعد المدير هناك في الزاوية لتتابع بشغف حركة الرواد وتصرفاتهم، إشارات الأيدي وحركات الشفاه، تعبيرات الغضب والهيام، نهايات قصص الحب وبداياتها، كل ذلك يبدأ من هنا أو ينتهي هنا لكن سرعان ما أدركت أن ذلك حلمًا صعب المنال، تعي جيدًا نصيبها من تلك الدنيا، تحاول جاهدة على أن تحافظ عليه دون نقصان. مهما تدنى حجمه أو تشرذم، ارتدت اليونيفورم الخاص بها وانطلقت تؤدي عملها وسط النظرات الجارحة والهائمة، سرًا في نفسها تعشق تلك النظرات، نظرات الرغبة، تشعر بنشوة ما لا تدري ماهيتها حين ينظر لها وسيم بعين الرغبة دون أن يفصح، سرية المشاعر لها في وجدانها وقع مختلف، تؤمن بأن المشاعر تعتق كما الخمر، الحب سِرًا، ممارسة الجنس سِرًا حتى وإن لم تفعل، تحب ذلك بكل ما فيه من أعراض انسحابية؛ فالإنسان لا يحاسب سوى على ما يفعل، أما تمنياته فهي شأن له وحده طالما لم تدخل حيز التنفيذ، الحلم يكفيها وبات حجة عليها وقد اكتفت به.

أشار لها شخص من الركن البعيد، اتجهت مسرعة إلى هناك قائلة:

ـ أنا هنا في خدمتك سيدي.

قال لها بابتسامة:

ـ نادني ببائع الحظ.. كم أحب ذلك الاسم.

اجتاحتها حالة من الاستغراب، ذلك الرجل غريب الأطوار يبدو شاذ الهيئة، ملابسه الأثرية تلك تجعلها تود أن تنفجر ضاحكة، تمالكت نفسها ثم تابعت:

ـ بامكانك أن تخبرني طلبك سيدي

ـ كوب من الكاكاو الساخن.

ـ في الحال ينفذ ما طلبت.

قالتها واستدارت ولازال ذلك الرجل بتلك الهيئة يثير فضولها، انطلقت ضحكاتها ـ بعد أن استطاعت حبسها ـ بمجرد أن اختفت عنه، مضت قرابة الساعة قبل أن يدخل مراد إلى هناك، جلس بجانبه قائلًا:

ـ ما قصتك؟

أجابه:

ـ أنتظرك في هذا المكان الذي حددته بنفسك قرابة الساعة.. لماذا تأخرت؟ أحب الالتزام بالمواعيد

لم يرد لكونه كان في واد آخر غير واديه، يتمعن في تفاصيلها التي حفرت في ذاكرته خندقًا لها، استقر نظره عليها دون ميل، تلك الفتاة التي تدعى روان قد احتلت من تفكيره حيزًا ضخمًا، حاول تقليصه لكن دون جدوى، تتوقف حياته تمامًا حين تحجب فتاة جميلة نفسها عنه، لكن سرعان ما كانت تمضي رغم أن ذلك الموقف لم يتكرر معه كثيرًا، جميع الفتيات يخروا له إما لماله أو لوسامته والرفض خيار لا يُطرح أمامهم على ساحته، حتى ماهية شعوره نحوها لم يدرك ملامحه بعد، ليس جنسي بحتًا ولا أفلاطوني، مجرد حالة مذرية من الانشغال بها، مجردة تمامًا،ذلك هو أشد ما يؤذيه، ألا يعرف هدفه، العشوائية تقتله ولا مفر سوى تحديد ما قد يقبل عليه حتى وإن كان مخالفًا لما يُبطن.

أشار بيده لها بعد فترة من التيه كي يطلب ما يحتسيه، لم تأتِ في تلك المرة بل أرسلت أخرى إليه سألها قائلًا:

ـ لماذا لم تأتِ هي؟

أجابته:

ـ مشغولة في تنفيذ طلب آخر، أنا هنا في خدمتك.

بدت عليه علامات الامتعاض، إلا أنه قد أخفاها بصعوبة شديدة، طلب فنجان من القهوة السادة وصمت تمامًا

تنحنح بائع الحظ قائلًا:

ـ أنا هنا

- أعتذر أنا معك

لم تَجِد عيناك لوهلة عنها وتابع بابتسامة خبيثة:

- هل تريدها؟

- عمن تتحدث؟

- تلك الفتاة الكلاسيكية التي تقف على بعد أمتار من هنا

- هل تعرفها؟

- لا

- إذًا قواد أنت؟

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

- حاش لله، أنا أُقرب المسافات وفقط، إنها جميلة جدًا وأنا أقدر الجمال، لن أعاتبك على تلك الكلمة.

- تشعرني دائمًا بأنك خرجت لي من مصباح سحري.. حتى هيأتك تؤكد لي ذلك

- هل وصفت لها شكل سريرك ورفضت؟

- مراد لا ترفضه امرأة، قد تأخذ مني بعض الوقت لكنها في النهاية سترى سريري بأم عينيها.

ضحك بائع الحظ ضحكة هيستيرية قائلًا:

- لقد جلبت لك الكثير من الأوراق الأخرى

- لا أود أن أشتري شيئًا، أتعجب من نفسي أنني فكرت لوهلة أن أتبع مخبول مثلك، لا أود أن أراك مجددًا، اتفقنا؟

أجابه ولم تفارق الابتسامة وجهه قبل أن يغادر:

ـ سنتفق، حتمًا سنتفق.

كنتُ أظن أن الأمر سيقتصر على الزواج وفقط أما مولود جديد في عمرك المتأخر ذلك يشاركني كل شيء فتلك جريمة.

قالها مراد وهو يجلس أمام والده، يتملكه الغضب من تلك الفعلة، لا يبالي بأمر الأبوة أو ما شابه، هو يبالي بالمال وفقط، ذلك الوريث الجديد الذي هبط من السماء كي يفسد كل ما خطط له ويزاحمه في تلك الحياة التي يراها أضيق من سَم الخياط مهما بلغ اتساعها ومداها، نظر له والده شذرًا بعد ذلك الحديث المهترئ ثم تركه وانصرف، أشعل مراد سيجارة ثم قذف قداحته بعنف حتى ارتطمت بالأرض؛ فتحطمت وتناثر فتاتها بكافة الأرجاء، ينفث دخانه بتوترٍ، يحرك قدميه ويديه ويهزهما بشدة، يبدو على ملامحه الضجر، تسري النار في جسده كله، يشعر بحرارة الانفعال تتسلل إلى داخله كالثعبان الخبيث، فصله عن تلك الحالة جرس الباب، نهض ليستكشف من الطارق

ـ الطقس شديد البرودة في الخارج

قالها بائع الحظ بعد أن تجاوز مراد متجهًا إلى داخل المنزل، جلس على الأريكة بعد أن خلع حذاءه، نظر إلى مراد قائلًا:

نسيت أن أخبرك، طلبك للتأجيل اليوم هو برهان على ثقتك في شخصي الكريم، في الجلسة القادمة سيكون في يدك دليلًا ماديًا على براءة موكلك.

تجهم وجه مراد بعد أن راوده الذهول ثم استشاط غضبًا من ذلك التصرف الغيرلائق، كيف تملكت منه الجرأة على أن يقتحم خلوتي بتلك الطريقة؟

أخرج مراد مسدسه وصوب فوهته باتجاهه قائلًا:

- قلت لك مسبقًا لا تريني وجهك مجددًا.

تحسس بائع الحظ معطفه، اقترب منه مراد قائلًا:

- إن أخرجت سلاحًا لن أتوانى لحظة عن الضغط على الزناد

ابتسم قائلًا:

- لا تخف، مد يده و أخرج آلة حاسبة من معطفه ثم ضغط على بعض الأزرار قائلًا بعد أن ابتسم في بلاهة:

- ثروة والدك تقدر بمليار دولار، مبلغ ضخم، بخلاف الأصول والقصور سيرث الرضيع النصف إذًا له نصف مليار جنيه، معك كل الحق في غضبك

- ما قصتك؟ من أنت؟

قالها مراد بينما ضحك بائع الحظ بشراهة حتى أصابته شرقة طلب على أثرها كوبًا من الماء، لم يلتفت لطلبه، أجابه بعد أن استطاع التنفس:

- لا يهم، بإمكاني أن أمنحك ما هو أعظم وأضخم من بضع ورق أثري أو ما شابه، كن معي ستمتلك الدنيا في قبضة يدك، سأدلك على شجرة الخلد ومال لا ينقطع، إما معي أو ضدي، في كلتا الحالتين أنا منصاع لك.. ولك الإختيار.

استجمع مراد قواه بعد أن خارت، بدا متماسكًا إلى أقصى درجة، كيف لمحامي نابغ مثله أن يخشى شيئًا!! لم يجرؤ أحدهم يومًا أن يقترب من مدخل شارعه فما بالك بمن اقتحم حياته.

www.maktabbah.blogspot.com

أخذ نفسًا عميقًا حبسه لثوانٍ ثم أطلق سراحه وقال أخيرًا بحدة:

- سأكرر عليك السؤال من أنت؟

قلت لك مسبقًا، أنا بائع الحظ، كن معي ستنتصر، والدك يود أن يحرمك من ملذات الدنيا، سأعرض عرضًا، في قضيتك اليوم ستنتصر، ستحصد الأموال والشهرة منها في مقابل أن تهتم وتفكر في كل كلمة تخرج من حلقي وأن تتلقاها بعين الاعتبار، ما أطلبه لا يتناسب البتة مع ما سأعطيه، لكني أرضى بالقليل، اطلب الالتفات لحديثي وفقط وتابع بحزم:

- لكن إن اتفقنا ونفذت ما وعدتك به، وجب عليك الالتزام أنت الآخر، وإن أخللت بالاتفاق، حينها لا تبكي على ما يمكن أن يحدث لك.

تقدم مراد باتجاهه حتى استقر في مواجهته تمامًا، جذبه من ملابسه بكلتا يديه قائلًا له:

- إن لم تخرج الآن ستلقى حتفك حقيقة.
- سأعود من حيث أتيت لكن قبل الرحيل وجب عليّ أن أثبت صدقي وقدرتي وولائي.

قالها بائع الحظ قبل أن يعطيه هاتفًا محمولًا، مد مراد يده بتأفف ليلتقطه، بمجرد النظرة تبدلت ملامح مراد، دقق النظر جيدًا، ظلت عيناه ساكنة وهو يشاهد ما في حوزته، نحى سلاحه جانبًا بعد أن شعر بأن ضيق روحه بدأ في الاتساع، دمه الذى كان على وشك التجلط بات كالشلال الذي لا يتوانى لحظة عن التدفق، ثغرة ما في عتمته تسلل من خلالها نقطة من نور، يشاهد على الهاتف زوجة أبيه ترقص شبه عارية لشخص ما، صوته يتردد إلا أن ملامحه لم تنكشف

صاح بائع الحظ قائلًا:

- هل تفكر فيما أفكر فيه.

قال مراد دون أن يتوقف عن المشاهدة:

- قتل زوج لزوجة الخائنة، البراءة دائمًا ما تكون سيد الموقف
- فكرة عبقرية، تلك هي مهمتك يا بطل، مع بعض من الكلمات التي من شأنها أن تجعل الدم يفور كالبركان، إلا الشرف يا صديقي، وبضع كلمات قانونية أخرى وستنتزع والدك من ذلك الجرم كالشعرة من العجين، فكر وأنا في انتظارك.

الحيرة تملكت من أمره بعدما تركه وانصرف وقد أخذ معه الدليل، القتل، خطيئة أخرى سيشارك فيها بعدما ارتكب معظم الموبقات التي خلقها الله على أرضه، الدافع بالنسبة له أقوى من جذع نخلة تغلغلت في الطين منذ سنوات، والده لن يضار، هكذا يقول لنفسه محاولًا طمأنتها ببضع كلمات من مجال تخصصه الذي برع فيه، قتلها لأنها خائنة، إن نجح في أن يجعل أباه مرتكبًا لذلك التصرف يكون قد تخلص منها دون أن يرتكب هو قصدًا جنائيًا بقتلها مباشرة، وفي القانون جرائم الشرف لها وضع خاص، نصب عينيه المال المكنوز في خزائن والده، سيكون له وحده عاجلًا أم آجلًا دون مزاحمة أو مشاركة من ثمة شخص.

يزيح الجدار بيده في تلك الغرفة الضيقة التي حبسوه داخلها في المستشفى، الوقت هنا يمر ببطء قاتل دون أن يخفف عنه ذلك

محاولاته الفاشلة، يحاول إبعاده عن طريقه دون جدوى، محاولة بائسة بالطبع، كيف لبشري ضئيل الحجم خافت القوى أن يفعل ذلك، إلا أنه يحاول، المحاولة في حد ذاتها تلهمه السلوان، كي يحوم الصبر حول المكان ويلقي بظلاله في نفسه التي ذابت في جفاء الأيام وبرودتها وحين يفشل بعد أن يبلغ العرق منه مبلغه يستلقى على الأرض محاولًا التنفس كي يثبت أن في صدره متسعًا ليوم آخر يمكن فيه أن ينجح، يحتاج لجلسة من الكهرباء تحديدًا في تلك الدقيقة، يريد أن يسافر إلى عالمها، لقد مَلَّ المسافة، ملَّ الاختيار بين اللاشيئين، النجوم ثبتت موضعها في الأفق وضوء القمر يعكس ظل له بالداخل.

لماذا يفترق الأحباء؟ راوده ذلك السؤال بينما كان يتأمل ذلك الطيف القمري المعانق لتلك النافذة المرتفعة عن بصيرته قبل جسده، لماذا لا يقررون أنه إذا حبس أحد الحبيبين وجب حبس حبيبه معه؟ هم في الأصل نصفان، لا يدركون أنهم قد قيدوا نصفًا والآخر حر طليق يبحث عن نصفه، لما لا يجمعوهم ببعضهم البعض قبل أن يصل الموت إلى نهاية السباق فائزًا؟ لا مانع عنده أن يموت هنا إن أتت حبيبته لجواره، لكن هل في ذلك ظلم لها؟

سأل نفسه مجيبًا:

- بالطبع نعم أو لا، لا أعرف الإجابة الصحيحة، لا يهمه سوى اللقاء حتى لو كان في ذلك ظلم لطرف على حساب طرف أو لماذا لا يموت الآن وينتهي كل شيء؟

دعا الله قبل ذلك أن يموت لكن الله لم يستجب له، لعله لم يكن مُخلصًا في الدعاء، كان يشوبه عدم إيمان بما يطلبه، هو يريد الخلاص ولا سبيل لذلك هنا سوى بالموت أو أن يخرج، أيهما أيسر، قرر أن ينتهي كل شيء عند تلك النقطة.

نهض من وضعيته ووقف أمام الجدار الذي كان يود أن يحركه منذ دقائق، ذلك الجدار عامل مشترك في كافة الحلول المقترحة، إلتصق به حتى أصبح الفراغ مُنعدمًا، مال برأسه إلى الوراء، إذا ارتطمت رأسه بضع مرات بالطبع سيصل لما يريد، وما أن هَمّ على التنفيذ حتى سمع صوت صرير الباب وهو يُفتح، نظر خلفه إذ باثنين من الأطباء يصطحبوه إلى غرفة الكهرباء، الجرعة اليوم ستزيد عن الحد لكونها عقاب عما تسبب فيه مع ذلك الرجل الذي إنتحر، إبتسم بشراهة وصاح "افتقدتك"، لم يندهش الأطباء مما يفعله لكون المجاذيب يفعلون ما هو أشد لكنهم لا يعلمون السر ولا يدركون أنه في طريقه للمتعة التي لا سبيل لغيرها في ذلك الوهن الذي يحيا داخله.

أفزعه قرع باب غرفته من جديد، نهض من على أريكته بعدما أفاق من ضوضاء الذكريات التي لا تفارقه لوهلة، فتح الباب إذ بحسين يقف خلفه منكسر النظر قائلًا:

- أعتذر عن إزعاجك لكن الأستاذ مراد ينتظرك في الخارج من أجل أمر هام.

أغلق الباب في وجهه دون إجابة، دقائق وخرج إليه، ركب بجانبه قائلًا:

- ما خطبك؟ كنا سويًا منذ ساعات؟ هل هناك جديد؟

طريقة حديثه مع مراد قد تبدلت من اللين لبعض من الجفاء، عبارات متعجرفة قصيرة دون استطراد، والرد أصبح مناسبًا لمقاس السؤال دون زيادة أو نقصان.

أجابه مراد:

- لقد فكرت كثيرًا طيلة الليل، أريد الفيديو الذي أريتني إياه، ستكون أسديت لي جميلًا ومعروفًا

- وما المقابل؟

- ما تطلبه.. مليون.. اثنين.. لن أبخل عليك

- فتاة المقهى

تظاهر مراد بعدم الفهم قائلًا:

- من تلك؟

- تلك الفتاة التي خطفت أنظارك حين كنا سويًا، عيناك فضحت كل شيء.
- ما دخلها بما نحن فيه، أخبرني وخذ ما تريد بدلًا من تلك المتاهة!!
- أود منك أن ترافقها، من الواضح أنها فتاة فقيرة بل وعاشقة لشخص فقير، ومثلها لن تأتي لك بكل تلك السهولة، هي لا تملك من الدنيا سوى الفقر والجوع، وتلك هي فرصتك يا بطل ستضرب عصفورين بحجر واحد وستحصل عليها بمجرد أن تتذوق نعيمك وستترك خلفها كائنًا من كان، الوصف شيء والتجربة شيء آخر، في نفس الوقت ستكون قد انتشلتها من الفقر والجوع، أنت من الأثرياء و قد فتح الله عليك فتحًا مبينًا، ماذا لو أعطيتها البسيط مما تملكه؟ لا أريد شيئًا لي أنا أحب أن أرى الجميع سعداء وقد أخذوا حقوقهم كاملة.

قال مراد وقد انتابه بعضًا من الريبة:

- ماذا على أن أفعل؟

ستشتري المقهى التي تعمل فيه روان وسيتم تعيينها مديرة له دون أن تعرف أنك مالكه، سنذيقها المال وحلاوته والسلطة ومذاقها الخاص وبعدها سأقول لك ما ستفعل مجددًا.

هل ذلك هو المقابل الوحيد كي تعطيني الفيديو؟

كي أعطيك الفيديو وكي أعطيك براءة موكلك الذي وعدتك به وكي أجلب لك روان في أحضانك، لا يوجد مقابل يا صديقي كل شيء في النهاية لك، إنها حلقة مفرغة، أنا أساعدك لأني أحبك، اِفعل ما تؤمر به واترك الباقي على العبد الفقير.

نظر إليه مراد باشمئزاز ثم قال:

- موافق.. دعني أسير خلفك للنهاية

بدأ ضغط العمل في الانخفاض تدريجيًا، لم يتبق سوى منضدتين بعد الانتهاء منهم سينتهي يوم آخر في حياة روان، راحت تنتظر أن يفرغوا من العشاء، بعد أن خلا المقهى تمامًا من ثمة شخص، أطفأت الأنوار وأغلقت كل شيء وانتهت من تنفيذ ترتيبات عمل الغد، اتجهت إلى حديقتها كي تأكل شطيرتها التي اعتادت عليها منذ سنوات، اليوم شديد البرودة، السماء في حاجة إلى البكاء، تشعر بحشرجة الصوت المختنق الذي يليه بالضرورة بعضًا من زخات المطر العنيفة، اتكأت برأسها على شجرتها وراحت تسرح في اللاشيء، انتبهت على صوت مضغ طعام يأتي من جانبها، حادت بنظرها بغتة لترى بائع الحظ يجلس بجانبها، يمضغ آخر قطعة من شطيرة التفاح التي اشتراها، أشعل السيجار بعد أن فرغ من التهامها ثم اتكأ هو الآخر قائلًا:

- إلى متى ستظل الحياة قاسية علينا لتلك الدرجة؟

بدا على وجه روان ملاح الضيق من تطفل ذلك الشخص واقتحامه خلوتها بتلك الطريقة المثيرة للغثيان، نهضت من مجلسها حتى استقرت أمامه مباشرة ثم قالت:

- من أنت ومن سمح لك بالجلوس هنا؟

أجابها دون أن يرفع رأسه:

- أنا الحياة، الوجه الحسن لها، أنا المنقذ والمهيمن، أنا من لا هدف له سوى رسم الهناء على وجهك.

ضحكت باستهزاء قائلة:

- هل تظن أنك أبي وأنا طفلتك المدللة

وتابعت:

- لقد تذكرتك، كنت تجلس اليوم بجانب ذلك الشاب

- هل تعرفيه؟

- وقح مثلك

ابتسم قائلًا:

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

- أعلم أن الضيق قد انتابك من لدغة الفقر و من مهنتك تلك التي يتفحص فيها الرجال جسدك ألف مرة.

انتبهت روان لما يقوله جيدًا، وبدأت تصغي إلى حديثه بعدما كانت تستهزأ به وبغرابته.

استطرد حديثه قائلًا:

الحياة يا عزيزتي لا تؤخذ هكذا، الحياة فرصة تأتي مرة واحدة دون رجعة ولا تفصح عن نفسها وتصيح أنا الفرصة أنا الفرصة بل تأتي مستترة وعلى الأذكياء أن ينبشون كي يحصلون عليها، إلا أنا قد أتيت وأصيح بصوتٍ جهور:

- أنا الفرصة، أنا الفرصة.

قالها بعدما نهض هو الآخر من مجلسه وقد وقف فاردًا ذراعيه على جانبيه، أخذ يكررها حتى أمطرت السماء عليهما، ارتفع صوت صياحه محاولًا أن يعلو فوق صوت المطر الغزير قائلًا:

- كوني معي ستفتح لكي الدنيا ذراعيها، انفضي تراب الفقر عن جسدك وعن جسد مَنْ تحبين كي تشرق الشمس مجددًا في حياة باتت مظلمة، سأعقد معكِ اتفاق يثبت جدية موقفي، بعد يومين على الأكثر ستصبحين مديرة المقهى، الآمرة والناهية أليس ذلك حلم كان ببعيد!! أنا أستطيع تقريب المسافات، تقريب كل شيء راتبك سيتضاعف أضعاف مضاعفة، ثقي بي ولكن إن نفذت الاتفاق من جانبي وجب عليك تنفيذ البند الآخر من جانبك وهو بسيط أن تصغي لي ولما أقوله فقط، لا أريد أكثر من ذلك.

تخلل جسدها برودة طاغية وداعبها طيف من التصديق، أغمضت عينيها وراحت تفكر في الأمر، الحياة قصيرة وقد خاضت حروب ضروس تجعل تلك اللعبة ساذجة إلى حد ما بالنسبة لها، لن تخسر شيئًا؛ فهي تنصت يوميًا لمئات الزبائن ومئات الشبان، أذنها قد اعتادت على الثرثرة، الحياة جميلة لكن ينقصها شيئًا ما، الحب متاح في حياتها، الحرية، ليس لها رقيب، إذًا هو المال، بعض من المال لن يضر ولن يفسد، تود أن تحطم رأسها وتنتزع عقلها كي تحدثه وجهًا لوجه، تود أن تخبره بأن يكف عن الومضاتِ والوخز وأن يفصح عما بداخله صراحة، إذًا فالموافقة على حديث ذلك الرجل ذي الهيئة الغريبة لن ينتقص منها شيئًا بل إن صَح الأمر ستحقق ولو جزءًا ضئيلًا مما حلمت به، رفعت عينيها حتى استقر نظرها عليه فوجدته يستند برأسه على الشجرة، يبدو أن النوم قد غلبه وتلك هي فرصتها الوحيدة في الفرار إن كان رفضها لحديثه هو القرار البات.

اتجهت باتجاهه بخطواتٍ ثابتة، نقرت على كتفه برفقٍ ثم تابعت بهزة عنيفة لكونه لم يستجب للين، طار النوم وانكشف بؤبؤ العين، تثاءب بغلظةٍ قائلًا:

- سيتحقق كل ما وعدتك به، دعيني الآن كي أكمل نومي فأنا أحلم حلمًا جميلًا أود استكماله.

بحيرة من صنع المطر بوسط الطريق العمومي، تنغمس إطارات السيارات داخلها بسرعة جنونية، يحاول المارة تفاديها كي لا تبتل ملابسهم، السكون يسيطر على كل شيء، إلا صوت الماء النازح من تلك البحيرة مختلطًا بحفيف أوراق الشجر، على ذلك الصوت يجلس مراد في شرفة مكتبه يراقب المارة وهم يصممون على العبور بمحازاتها، مع أن في الإمكان أكثر مما كان، بإمكانهم الابتعاد قليلًا، إلا أن هناك إصرارًا على المرور لا يعقبه إلا سب حين يطولهم الماء، برمجة آلية لم يخترقها ثمة أحد منهم، كان من الممكن أن يبتعد هو الآخر في لحظة فاصلة، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، في النهاية دائمًا ما تنتصر رغباته على كل شيء، لم تمضِ دقائق حتى سمع قرع على الباب، إنه أسلوبه اللعين، بات في قمة الأدب ويستأذن قبل الدخول، فتح الباب وكعادته مضى للداخل دون انتظار الإذن

- أين الفيديو الذي وعدتني به؟ اشتريت المقهى لروان وغدًا ستكون المديرة، أين ما اتفقنا عليه؟

قالها مراد ثم جلس على مكتبه وهو ينتظر منه ردة فعل.

قال بائع الحظ وهو محدقًا إلى السقف:

- أنا فخور بك يا مراد ونعم الابن، تريد أن تقتل أخاك وأمه حتى لا يعيش مكسور العين والخاطر على ذكرى أم نجسة مثلها.

وتابع:

- أنت طالب مجتهد وملتزم لذا لك مكافأة ستعرفها في توقيت مناسب لكن أود منك الاقتراب من روان أكثر، إنها تحتاجك، أنا أفعل الخير وألقي به في البحر، لم أطلب شيئًا لنفسي.

انتبه مراد لما سمعه، الأمر غريب جدًا، قال في نفسه:

- لماذا يهتم بتلك الفتاة لهذه الدرجة!! بالطبع هي شريكة له في لعبة لم أكشف عنها حتى الآن.
- لماذا تساعد هذه الفتاة بكل تلك الجدية؟

سأله مراد و في ترقب انتظر الإجابة التي لطالما ود أن يعرفها، لا تهمه الحقيقة طالما يأخذ خطوات جدية في طريق الثراء الفاحش، إلا أنه من باب الفضول على الأقل يود أن يعرف.

- سؤال جاء متأخر جدًا، كان من الممكن أن أجيب عليه قبل أن ينتهي الشوط الأول من اللعبة، عليك أن تتيقن أن اللعبة لم تنته بعد، يتبقى شوط آخر إن لم يكن هناك وقت إضافي.

فارقه بائع الحظ ومضى، قرر مراد أن يتتبعه لعله يحصل على الفيديو دون استكمال تلك اللعبة الغامضة، ظل يرمقه بسيارته دون أن يشعر به، وصل إلى منزله وبمجرد دخوله وقف مراد بسيارته على مسافة منه، قرر أن ينتظر قصيرًا حتى يغفو بعدما لمح نافذة

مفتوحة بإمكانه أن يدخل منها ويخرج دون أن يشعر به، انتظر قرابة الساعة حتى انطفات الأنوار كليًا، تدلى من سيارته حتى وصل إلى تلك النافذة، المعبر الوحيد لكنه غير آمن بالمرة، لكن من حسن الحظ أن ذلك الرجل يقطن بالدور الأرضي.

استطاع الدخول بسهولة ويسر، أخرج هاتفه ليخطو خلف إضاءته كمرشد له، يرى بالكاد بعضًا من أشياء تبدو كالروبابيكيا، مذياع قديم، منضدة للعب الروليت يبدو أنها لم تستخدم منذ مدة، أوراق مبعثرة وبقايا سيجار فاخر، ظل يبحث عن ذلك الهاتف في كافة الأرجاء، إلا أنه يدرك تمامًا أن ذلك الرجل حريص جدًا ولن يترك مثل ذلك الدليل الدامغ على مرأى من أي متسلل.

ـ ما ذلك الهراء؟

صاح بها حين عثر على أقصوصة من جريدة قد إلتهمها الزمن، نعي منشور بتاريخ قديم جدًا مدون بصدره " **إنتقل إلى جوار ربه المغفور له خيرت اللواتي**" وبجانب الاسم صورة لبائع الحظ كما أطلق على نفسه، تشبهه تمامًا لكنها في شبابه، رغم كل تلك السنوات لم تتغير ملامحه كثيرًا، الشعر الأبيض وتجاعيد الوجه قد حُفرت على ذات التفاصيل دون تبديل في الأصل.

انتبه حينما أبصر ضوء أتى نتيجة إشعال القنديل و صوت من خلفه قائلًا:

ـ الميت يمكن أن يقتل مرة واثنين وثلاثة ولن يحاسب..

وتابع بضحكة هيسترية قائلًا:

- لأنه ميت.

قالها بائع الحظ وهو يصوب باتجاهه بندقية، تحسس مراد مسدسه، اقترب منه حتى وضع الفوهة على جبينه، كنت أعرف أنك أحد زواري الليلة، كنت أفضلها فتاة لكن لا يهم

وأكمل:

- كنت دائمًا أعطيك حرية الاختيار لأني أثق بك، لكن بعد فعلتك تلك أصبحت الثقة لا تجدي نفعًا ولا تؤتي إلا ثمارًا عفنة، إما أن تنفذ ما اتفقنا عليه حتى تحصل على الفيديو وإما ضع أنت كل الاحتمالات التي يمكن أن تتخيلها، لك الاختيار، إلا أن تضييق الاختيارات بات أمرًا ضروريًا، أنا هنا لحمايتك، لمجدك وشهرتك ونفوذك وغناك، ولا تشغل بالك بكل تلك التفاهات من الأسئلة. سأعد على أصابعي حتى ثلاثة، إن لم تقفز من تلك النافذة ركضًا لن تجد الرصاصة مستقرًا لها سوى رأسك.. واحد.. اثنان.. وقبل الثلاثة كان مراد يركض في الخارج راكبًا سيارته وهو في حالة يرثى لها، يرتعد خوفًا ورهبة في حالة اللاوعي من جراء تلك الواقعة.

ـ الإلتزام أهم ما يميز عامل عن آخر.. لن أسمح بالتهاون أبدًا

قالتها روان وهي تقف بوسط المقهى، يقف أمامها كل العمال مصطفين بجوار بعضهم، متجهمة الوجه حادة الملامح كي تعطي انطباع جاد للجميع، توقن بأن المرأة لا ينظر لها بمنظور جاد خصيصًا إذا كان تحت إمرتها رجال؛ فلا بُد من بعض التعبيرات التي من شأنها زرع الخوف والرهبة والردع، تصدق نفسها بالكاد أنها أصبحت المديرة كما وعدها بائع الحظ، كيف بتلك السهولة فعل ذلك؟ أخبرها المدير السابق استقراره في منزله وتسليمها شارة الإدارة من بعده، كانت تود الرؤية من تلك الزاوية التي اختلفت كثيرًا، ترى الحياة من منظور آخر، السلطة لها مذاق آخر وأثر مختلف على النفس، بمجرد أن استوت على المقعد بدا لها ما لم تكن تلاحظه قط، الجانب المادي لتلك الحياة، نظافة المكان، تجهيزات الأطباق الرئيسية، حجم المبيعات، أمور مادية تغلغلت حتى تحكمت وأزاحت عين الشعور الوجداني، أو على الأقل حاولت المزاحمة والإقصاء.

لم تعد تلمح تلك الوردة المهداة من الحبيب على المنضدة في أقصى الركن ولا لحظة الخجل حينما يتفوه الحبيب بلفظة الحب للمرة الأولى ولا انكسار إحداهن عقب فراق غادر، بل جل ما يشغل تفكيرها هو حجم الفاتورة المدفوعة لتحصيل مبلغ محدد ألقي على عاتقها تحصيله.

- ستعمل معي هنا.. اختر المكان المناسب لك

قالتها روان لعادل الذي يجلس أمامها غير مقتنع بما تقوله.

صمت عادل للحظات في محاولة لاستجماع قواه ثم انفجر قائلًا:

- هل سأعمل تحت إمرتك؟! أنا لا أقبل ذلك الوضع أبدًا، مهما كلفني الأمر من خسائر.
- لم يا حبيبي؟ دائمًا ما تقول أننا شخص واحد.. لا فارق بيني وبينك.. منذ متى ذلك الحاجز اللعين؟
- ليس حاجزًا بقدر ما هو وضع خاطيء لن أضع نفسي فيه مطلقًا، سامحيني؛ فأنا ابن الفقر ولن أخرج من تحت مظلته إلا بيدي أنا لا بيد شخص آخر حتى وإن كان ذلك الشخص هو أنتِ.

قال تلك الجملة وفر مسرعًا من أمامها دون أن ينتظر منها حديثًا آخر من شأنه أن يطول من وقت تلك المناقشة العقيمة أكثر من ذلك، لا تدري لما رفض، لم تتفهم ما قاله، بدلت الأدوار ووضعت نفسها مكانه، ماذا لو كان هو من عرض عليها ذلك الأمر؟ كانت ستوافق حتمًا، هي تعتبره سندًا لها حتى وإن كان غير ذي حيلة ولا قوة، تشعر بالأمان لمجرد أن ذلك الجسد يستقر جانبها، هو لم يتفهم ذلك، غلبته تلك النبرة الذكورية العفنة التي باتت تتحكم في مصائر البشر، لم تقصد سوى أن يكون بجانبها، لطالما حلمت أن يكون رفيقًا لها، حاولت مرارًا أن تجد له مكانًا وسط

العاملين هنا، إلا أن الرفض من الإدارة دائمًا كان الرد وحينها كان موافقًا ومرحبًا بذلك، ما الذي تغير؟ لملمت ضيقها وراحت تجول بنظرها في المكان، استوقفها ابتسامته اللزجة على حد إحساسها وهو يخطو بخطوات ثابتة تجاه المقهى، شعر بسعادة عارمة حينما لمحها تجلس على ذلك المقعد الذي تمنته، ذلك يعني أنها تستعد للعبة بكل ما فيها من مخاطر، تقدم باتجاه المكتب التي تجلس عليه، جلس أمامها ثم أشعل السيجار المعتاد، نظرت له بنظرات شاردة تعكس شعورها بالغربة كلما رأته، رغم كونه مصدر نفع بالنسبة لها إلا أنها تشعر ببرودة المغترب على أرصفة دولة غنية إلا أنها غير ذي ضمة كضمة الأم لابنها، تنحنح بعدما طال السكوت ثم قال:

- وفيت بعهدي ووعدي، هكذا دائمًا يكون الكبار، تبًا لتواضعي

تشعر بشيء ما ينقص تدريجيًا في تلك المعادلة، كان سيكتمل الحلم إن تجاوز حبيبها الأمر ووافق على أن يكون شريكًا لها في كل شيء، لا تحتمل اليوم بالذات مزاحه السمج، قالت بعد أن فتحت أمامها دفتر الحسابات:

- ماذا تريد؟

- كنت أسمع دائمًا أن الكرسي يبدل الإنسان من حال إلى حال، لكن ليس بتلك السرعة يا عزيزتي.

نظرت روان إلى الكرسي باشمئزاز قائلة:

- كرسي رئاسة الجمهورية تقصد؟

- هل تريدينه؟ أمر بالنسبة لي في غاية السهولة، العالم كله هنا بالداخل

قالها وهو يشير إلى قبضة يده وتابع:

- فلا سبيل للفرار مهما كانت الحيل.

يضيق صدرها عندما تسمع منه ذلك الحديث، لم يقترب منها أي خطر حتى الآن، إلا أنها شعرت بأنها محجوزة بالفعل داخل قبضة يده، أتباعه جعلها تشعر وكأنها ذابت في عجين لا تعرف كنيته، لا تنفصل أجزاءه ولا مكوناته مطلقًا، فهل يستخرج الدقيق من العجين بعد خلطه!! قدرته على التنفيذ كانت سريعة وصادمة جعلتها تخشى ما هو آت، نطقت بحذر:

- هل من الممكن أن تشرح لي سريعًا ما في نيتك؟

- جعبتي فارغة تمامًا، لا أعترف بالنيات، أنا أغوص في جعبتك أنتِ، أنتِ من تريدين، أما أنا لا أريد سوى رؤية البشر أجمعين في غاية الألفة، ماذا لو أصبحتِ مالكة لذلك المقهى الجميل؟

قالها وهو يطوف بنظره ليتفحص كافة أرجاء المقهى، من أين عرف؟

تتمنى ذلك طيلة مدة عملها هنا، تمنت أن تكون المالكة ولو ليوم واحد؛ فبعد أن ذاقت حلاوة الإدارة والسلطة والمال لم يتبق لها سوى التملك، أن تكون من ذوي الأملاك، ولكن كيف يمكن لذلك أن يحدث وهي لا تمتلك من المال ما يكفي لشراء منضدة واحدة، المفترض أنه يمتلك الاجابة على ذلك، أجابته قائلة:

- أود بالطبع ولكن ضرب من ضروب الخيال أن يحدث ذلك.

أجابها بهمسٍ:

- بخطوة بسيطة، شاب يمتلك ملايين الجنيهات، كل تلك الأموال آلت إليه بطريق غير شرعي، إن أخذنا منه كل شيء سنكون قد فعلنا حسنة تدخلنا الجنة بغير حساب، لا سيما وأننا سنوجهها لفعل الخير وللربح الشريف بدلًا من الخمر والجنس وغيره من الموبقات، أذكرك الفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة، أمامك من لحم ودم، تجلس على ذلك المقعد البالي الغير مريح بالمرة. و لم تعد تحتمل الجلوس أكثر من ذلك، دقائق وستمضي تاركة إياكِ.

انتابتها الدهشة من جراء ما قاله، تريد أن تكون من الأغنياء ولكن ليس بتلك الطريقة، سألته بنوع من أنواع الفضول:

- من ذلك الشاب الذي تقصده؟

مراد.. الشاب الذي طلب منكِ أشياء ترفضي أن تمارسيها دائمًا، قررتي داخلك بالطبع أنكِ سترفضين جلب الأموال بتلك الطريقة، في حين أنكِ لم تسأل لما أنتِ بالذات تجلسين على ذلك المقعد!! تناقض مريب.

فهمت الآن.. بالطبع هو من أرسلك من أجل إغرائي:

- هو لا يحتاج لذلك، بماله يستطيع إحضار كوكب كامل من النساء حتى لو وزع ماله كله عليهم، لكن ماذا لو وزع ماله كله عليكِ وحدك؟

قالها ثم نهض متجهًا إلى الخارج تاركًا إياها، حسابات نفسية معقدة تجتاح العقل والعاطفة، في نفس التوقيت الذي يجلس مراد في منزله المخصص لما يحب أن يفعله بعيدًا عن أعين البشر، أمامه تلك الأربعينية الشقراء، شعرها يتدلى ليستر بعضًا من ظهرٍ عاريًا تمامًا، ترقص على نغمات كلثومية كي تثير مراد حتى يقوم بمهامه على أكمل وجه.

لم يطلب منها ذلك مطلقًا من قبل، كان يثار بمجرد رؤيتها، تشعر بأنه قد تبدل من حالٍ إلى حال، العاهرة الوحيدة التي ترفض أن تتقاضى منه أموالًا مقابل ما يفعل، ظلت ترقص حتى شعرت بإجهادٍ مضنٍ في حين أنه لم يتحرك فيه شيء، جلست بجانبه ووضعت رأسه على صدرها قائلة له:

- ما بك يا عزيزي؟

أجابها:

- لا شيء يا حنان

شعرت بقطرات ماء تنزلق على جسدها، تفحصت وجهه حتى عرفت منبعه، يبكي، عانقته بقوة وترجته أن يخبرها، ألحت كثيرًا في حين أنه لم يكف عن البكاء المكتوم المختنق خشية من أن يسمعه أحد حتى هي، ظلت تحتضنه حتى اعتدل في جلسته قائلًا:

- أنا تائه وبائس.

قالت:

- هل تعلم يا مراد أني أشعر بك كشعور كل ذي حمل بطفلها وهو يلهو داخلها، حتى بالنفس الصادر منك أستدل منه على حالك، أدرك جيدًا أني بالنسبة لك شهوة، جسدي وتكويني وأسلوبي يمنحانك أعظم إشباع جنسي على وجه تلك الأرض، لكن أنا أشعر بك شعور مختلف، في الساعات التي أقضيها هنا، كان من الممكن أن أربح بدلا منها ألف أو ألفين قل ثلاثة، لكني أغلب راحتي معك على كل شيء مادي، حتى طواعيتي ورضائي بكل ما تفعله بي من جانبك، إحساس بالسيطرة والتملك يزيدك شهوانية وتمسك، ومن جانبي أفعل ذلك لأني أحب فعله على وجه الخصوص

- هل تفهمني؟

مسح على شعرها المتدلي حتى ذقنه، هَمَّ بها لعله ينسى ما هو فيه، ليلة أخرى معها يمكن أن تنسيه بعض الشيء لكنه فشل، للمرة الأولى التي يفشل فيها في مضاجعة النساء، تفهمت ما هو فيه، ولأنها لا تفعل ذلك من منطلق تجاري قامت باحتوائه، أخبرته بأنها هي السبب في ذلك وليست مؤهلة اليوم لشيء، إستلقى بجانبها دون مقاومة أو محاولة، إستسلم لما هو فيه، دقائق ونهض من جانبها دون حديث، بدل ملابسه وركض إلى الخارج دون أن يدرك وجهته، يسير بخطى متعرجة حتى قادته قدماه إلى تلك الحديقة، إرتمى بجسده على الأرض وأغمض عينيه ووضع يده على وجهه، تمنى أن يزوره ملك الموت كي يخلصه من حياته القميئة، تمنى من الله أن يحدث ذلك الآن، أغلق عينيه وراح ينتظر أن تتحقق تلك الأمنية، حتى شعر بيد تهزه، شعر وكأن الكهرباء تسري في جسده كله، ظن أن الله قد إستجاب له؛ صاح:

ـ لا أريد أن أموت.. إبتعد إبتعد

فتح عينيه بسرعة حتى إستقر نظره عليها قائلًا باستنكار:

ـ أنتِ!!

أجابته هي الأخرى:

ـ أنت!! ظننتك شخصًا يحتاج للمساعدة.

إبتعدت عنه كي تجلس بجانب شجرتها، تتبعها حتى جلس بجانبها، لم ينطقا، كل دقيقتين يختلسون النظر لبعضهما البعض ثم ينظر كل منهما أمامه مجددًا، يفكران في بعضهما البعض

بطريقة مختلفة، حاجز نفسي يدركون جيدًا مدى هشاشته، يعوق كل منهما على تنفيذ فعلته، يدرك مراد بأن العاهرة هي من يجوز مضاجعتها دون خطط، ودون جرعة تمثيلية للحب أو كتابة رواياته، فالعاهرة توقن بأن من يعتليها لا يريد منها إلا جسدها وفقط، النيل من الفتيات بعبارات الحب والخديعة والوعود الواهية ليست منه في شيء، تلك مبادئه والتي يتخلى يوميًا عن إحداها، وهي في الأصل تعد على أصابع اليد الواحدة.

لم يعد صدر الحبيب موطني، لا ولا أرض الهوى المذبوح أرضي، لم يعد يمكن أن أبقى هنا؛ فهنا يبكي على بعضي بعضي.

صوت تلك الأغنية يتردد في الأفق من مصدر ما لا يدركونه، إنسجم معها إلى أبعد حد، يحب تلك الأغنية حبًا جمًا، يشعر بأنها تخاطب وجدانه ومشاعره حين يقول القيصر:

- وإذا حانت صلاة فاجمعي بعض دمعي، وتوضي طهر الدمع ذنوبي كلها، وسقى أرض المحبين وأرضي.
- أرى في عينيكِ حزنًا مهيبًا، لما كل ذلك، أعرف أن الحياة ليست عادلة في ظنك، لكن هناك قدر زائد عن الحد المسموح تحملينه بداخلكِ

قالها مراد موجهًا حديثه لروان التي لم تلتفت له، تمنع نفسها عن الرد، تقاوم تلك الرغبة الدفينة التي زرعها بداخلها بائع الحظ، هي لا تعرف سبيل الحصول على تلك الأموال كما أخبرها، ولكنها تدرك جيدًا أنه طالما نطق بذلك فهو يعرف جيدًا من أين تؤكل

الكتف، ردها عليه وجذب أطراف الحديث سيكون بمثابة بداية الصفقة، جاهدت، حاولت إلا أنها انتهت بقولها:

- الحياة سلبتني كل شيء

يشعر مراد بأن تلك الفتاة مختلفة تمامًا عما عرفهم من قبل، يدرك أنه أتبع بائع الحظ من أجل التقرب منها، فهو يتمناها بشكل يفوق تمنيه في الحصول على ذلك الفيديو، بمجرد النظرة يتحرك شيء بداخله مخالف تمامًا لذلك التحرك المادي الشهواني الآخر، ماذا لو كانت وافقت على ما كنت سأعرضه عليها دون وسيط!! كان الأمر سيكون ألطف من ذلك، هكذا تحدثه نفسه حين يشعر بذلك الإحساس الذي راوده من قبل في اللقاء الأول معها، لم يكترث له، بل لم يستطع تفسيره، فما كان منه إلا أن طلب منها حينها أن ترافقه إلى شقته، ليس بوسعه أن يتحدث إلى فتاة بغير ذلك الطلب، لا يعرف عنوانًا للحب ولا للصداقة مفهومًا.

- أنا أيضًا قد سلبت كل شيء، أنا الآن كالحياة أسلب فقط ولا أعطي، هل تعرفين أنني.....

نظر بجواره كي يكمل إلا أنه اصطدم بفراغ تام؛ لم يجدها وحل محلها النسيم البارد، إختفت تمامًا، أصر على أن يكمل قائلًا:

- هل تعرفين بأنني أريد أن أختفي تمامًا من تلك الحياة، مكاني القمامة بكل ما بداخلي من قاذورات، يريدني أن أفوز بك ، أعلم تمامًا أن اللون الأسود إذا رقصت لي

به سيكون عظيمًا.. إلا أن من لا يملك أعطى لمن لا يستحق، أتأرجح بين الرغبة الملحة والوسيلة الشيطانية، لا أعرف من أنا، هذا أم ذاك!!

www.maktabbah.blogspot.com

استيقظت روان من نومها على صوت المنبه الخاص بها، تحتاج للشجاعة الكافية كي تخرج قدمها من تحت الغطاء، البرد قارس وهي لا تبغض في الحياة سوى تلك اللحظة، لولا حبها لعملها ما خرجت من تحته أبدًا، اصطحبت عادل معها بعدما أقنعته بالعمل معها بدلًا من مكوثه بالمنزل بعد فصله مؤخرًا من ورشة السيارات.

كم تشعر بسعادة غامرة لكونهما هما الاثنان بجوار بعضهما في اتجاه العمل، وما أن وصلت حتى ذهلت من هول ما رأت، المقهى مغلق ومعلق عليه لافتة ضخمة مدون عليها (المقهى للبيع)، هرولت باتجاهه، حاولت دفع الباب إلا أنه قد أوصد بقوة، قرعت الباب في حالة لا وعي، جذبها عادل قائلًا:

- روان الباب موصد من الخارج بقفل ضخم محكم.. هيا بنا نعود من حيث أتينا

قالت بنبرة خوف:

- من أين سنأكل.. أغلق باب الرزق الوحيد.اتركني وشأني يا عادل، اتركني وشأني.

ما بين غمضة عين وانتباهتها شعرت روان بأنها عارية تمامًا، البارحة ذاقت من النعيم ما كانت تسعى إليه طيلة حياتها، والزمن قد بخل عليها بأن يعطيها المزيد، لم تشبع بعد، ولم تسنح لها الفرصة كي تستكين لصياح النعيم المتتالي رغم القرب الوطيد.

رفض أن يفارقها إلا أنها أصرت وصاحت في وجهه بأن يعود من حيث أتى، لم يجد مفرًا سوى الرحيل، تركها وقد جلست أرضًا مستندة على الباب الخشبي للمقهى، يفيض الدمع من عينيها بغزارة، كل الأبواب قد أُغلقت في وجهها حتى ذلك الباب، لم يتبقى شيء، هناك دائمًا نقطة مضيئة في حياتنا نحيا من أجلها مهما ساد الظلام الحالك، ثغرة على استحياء تسمح لشعاع ضوء واحد لا يزاحمه آخر على العبور، يكون بمثابة المرشد، حين ينكتم الضوء ويتلاشى تمامًا ندرك أننا في مرحلة الخطر، مرحلة نتأرجح فيها بين الحياة والموت، على أي سنستقر لا نعلم، لكن كل ما نعلمه أن تلك الفترة لن تطول مهما كانت النتيجة.

- هناك الكثير يمكن أن نفعله لكننا دائمًا ما نحب البكاء على اللبن المسكوب.

قالها بائع الحظ وهو يقف أمامها حاجبًا عنها الضوء بظله، ضمها الظل كضمة القبر، لا فرار منه سوى للخلاء الذي لا نفع فيه ولا حياة، في لمحة من الزمن يمكن أن يُقلب كل شيء رأسًا على عقب، ولا علينا سوى أن نتحمل نتيجة خياراتنا.

واستطرد قائلًا:

- الحياة الآن باتت حالكة السواد، لكن ماذا لو أصبح ذلك الكيان بأكمله ملكك، لكي يتبدل مقعد الإدارة بمقعد المالك، تنهال عليكِ الأموال دون عائق.
- كيف؟
- مراد.. كلمة السر
- سرقة مهما اختلف الأسلوب وأنا لست لصة، أحيا بشرف مهما كانت المعوقات.
- من قال ذلك حاشا لله.. تلك الأموال سيأخذها عنوة من أبيه فضلًا عما يملكه وستنفق على الغانيات ومن على شاكلتهم
- من أنت وما قصتك؟
- ما الحياة إلا حظ، أنا بائعه كما أبيع الموت، أنا بائع المتضادين، من النقيض للنقيض أوصل بينهما بجسدي ولأني من ذوي الجود والكرم نطأ نعالهم حرمتي ولا أبالي.

هل حلت الطائرات محل السيارات في الخارج؟

سؤال قد أطلقه تجاه وافد جديد لمستشفى العباسية، ينتظر الوافدين الجدد كل فترة كي يطمئن منهم على الأحوال خارج تلك الحدود، لم يدرك المتلقي معنى ما قيل ولا من سأل يعرف

الإجابة، لكن مجرد التصريح بما قد دفن داخله حتى وإن كان لأصم يغنيه عما قد يعبث بصدره فيهلكه؛ ففي الخيال نعيم إن تملكنا زمامه وفي الواقع هلاك إن انفرط منا عقده، بالطبع لم يجبه، ولم يجبه أيًا من المتواجدين، قال له أحدهم ذات مرة أن الخارج أصبح خطرًا جدًا، فلقد حلت الطائرات محل السيارات في الخارج، هو لم يصدق بالطبع لكن وجب عليه التأكد، جلس بجوار ذلك الوافد الذى بدا عليه الخوف قائلًا له:

لا تخف، الحياة هنا بسيطة، أبسط من تلك الدمعة التي تود الفرار من مقلتيك، ربت على كتفه وودعه بابتسامة خفيفة، بالطبع لن يتحدث معه مرة أخرى، لا يتحدث هنا أحد مع أحد، الكل يحدق في الفراغ، ومن استعصى مرضه إما يتلاشى كالبخار. وإما يظل جسد خاوي بلا بوصلة، صاحت إحدى الممرضات:

- الجميع عليه أن يتوجه إلى الخارج، فسحة من الوقت في الحديقة

بدأ الجميع يتوافدون إلى الخارج تنفيذا للأمر، بمجرد أن وصل إلى الباب حتى أشارت له قائلة:

- انتظر أنت، لا تخرج

أغلقت الباب واقتربت منه، التصقت به تمامًا وقبلته قائلة:

- شيب شعرك يزيدني إصرارًا يومًا بعد يوم على الفتك بك.

دفعته ليسقط على السرير، إعتلته وهي تقول:

- منذ عام وأنا أنتظر لحظة كتلك،لا أعلم لماذا أنت بالذات تثيرني بتلك الطريقة.

جردته من ملابسه، شعر بأشياء لم يشعر بها منذ ردح من الزمن، تحركت بداخله رغبات قد دفنت منذ القدم وردم عليها حتى باتت من قبيل الآثار، إلا أن تلك المشاعر لم تنعكس على جسده، لم يجد نفسه قادرًا على التجاوب معها، فوجيء بأن الوظائف العضوية قد تعطلت، أصبح عاجزًا عن ممارسة الحب. تحاول معه إلا أنه لا يستجيب بتاتًا، تغمس رأسها داخله وتهيم بشفتيها في صحراء جسده دون نتيجة، صفعته على وجهه قائلة:

- مجنون عاجز

نهض من السرير بعينين يتناثر منها الشرار، تلك هي المرة الأولى التي ينجح فيها إنسان أن يصل به إلى ذلك الحد من الغضب، صفعته بما تفوهت به كان أقوى من يدها، لم يحتمل أن يوصم بتلك التهمة المشينة، لف يده حول رقبتها وأحكمها، لم ترتخ إلا بعد أن سلب منها روحها بدلًا من أن يسلب منها شيئًا آخر.

بعدما تهاوى جسدها وسقطت على الأرض قتيلة ضحك قائلًا:

- تلك هي النتيجة الحتمية لمضاجعة المجانين يا عزيزتي

انتبه لصوت الباب، حمد الله أنه في كل مرة يصطاده الباب في شباكه قبل أن تلتهمه الذكرى، بصرف النظر عن شخص من في الخارج، فتح الباب إذ به مراد، قال بعدما سمح له بائع الحظ بالدخول:

- أريد الفيديو.. أظن أنه قد آن الأوان لذلك.. أنا لم أُعْصِ أمرًا لك، كل ما طلبته قد نُفِذ بالحرف الواحد وفي انتظار تنفيذ المزيد

- ما هي خطتك بعدما تحصل عليه؟

قالها بائع الحظ وقبل أن يحصل على الإجابة مد يده بالهاتف كي يعطيه لمراد قائلًا:

- لا يهمني أن أعرف

- تعطيني إياه بكل سهولة، ما الذي قد يضمن لك أنني سوف أكمل ما تريده؟

- أنت الضمان طالما حي ترزق

- ومن يضمن لي حقي في التعامل مع ميت؟

أمسك بائع الحظ بالسيجار ولامس فوهته المشتعله بيده حتى آلمته قائلًا:

- أنا حيٌ أُرزق وأشعر بلسعة النار وبطشها.

لم يهتم بما قاله، المهم أنه قد أخذ منه ما يريد، بمجرد أن الفيديو قد أصبح في حوزته تركه وانطلق باتجاه أبيه قبل أن يسمح لضميره أن يلعب معه لعبة أخرى من شأنها الانسحاب.

وصل إلى منزل أبيه للتو، عانق أباه بمجرد أن فتح له الباب عناقًا حارًا ثم جلس أمامه ناظرًا إلى الأرض في خجل ويهمس بالصوت فيفسر أبوه حديثه بالكاد قائلا:

- سامحني يا أبي أنا مخطىء حقًا فيما أبديت لك من حديث.
- وما سر ذلك التغيير المفاجىء؟
- أنا فقط كان همي صالحك لكن ما باليد حيلة، أتشرف بوجود أخ لي في تلك الدنيا لكن بعد التأكد من أمر ما.
- ما هو؟
- أود فقط التأكد من كونه أخي.. من صلبك.

نهض والده من مجلسه و قد اعتراه الغضب من رأسه حتى أخمص قدمه قائلًا:

- ماذا تقصد أيها الوغد؟ أنا نبيل الشيشيني ولا تجرؤ امرأة على العبث معي، طفل مثلك يأتي ليخبرني بمثل تلك المهاترات.

لم يرد بل آثر السكوت، في حوزته الدليل، هو فقط يود أن يرى تعبيرات وجه أبيه الغاضبة، يتلذذ بها لكونه سيرى عكسها تمامًا بعد دقائق، سيعقد مقارنة بالطبع ستشعره بالنشوة التي يتمناها منذ فترة، تقدم أبوه باتجاهه وأمسكه بقوة من قميصه، حاول الإفلات من قبضته كي يخرج الهاتف، بدأ تشغيل الفيديو

ووضعه نصب عينيه، بدأت أعصاب يده تنفلت تدريجيًا حتى تهاوت قبضته، بيد مهزوزة أمسك بالهاتف وظل يحدق كثيرًا وقد اتسعت عيناه.

- إن لم تقتلها أنت سأقتلها أنا.

قالها مراد بينما إنتفض والده من مجلسه مضطربًا، أطلق ساقيه للريح ليصعد إلى الأعلى في ثوانٍ معدودة، فتح باب غرفتها حيث كانت مستلقية على سريرها، إنقض على مسدسه الموضوع تحت الوسادة، تتسع عيناها في ذهول من هول ما سيفعل، صوبه باتجاهها بيد وبالأخرى يضع الهاتف أمام عينيها وقد بدأ تشغيل ذلك الفيديو اللعين، ينظر في عينيها التي تذرف دمعًا كالسيول، تحاول أن تقول شيئًا ما، إلا أن الصدمة قد أعاقت النطق، تتوسل بتعبيرات الوجه بينما يقف مراد على الباب من الخارج مستمتعًا بما يجري، ضغط على الزناد، أخرج ثلاث رصاصات في مختلف أنحاء الجسد، رصاصة منهم سكنت القلب، أطلقت صرخة مكتومة حتى خرجت روحها إلى بارئها وإرتطم رأسها بالسرير، بينما إرتطم جسده هو الآخر حين إستكان وإستسلم للندم، دموعه تنسال هو الآخر بغرابة شديدة، كان من المفترض أن يسألها، أن ينصت لها، لكن ما بعد الخيانة ذنب، أخرج مراد هاتفه وإتصل بالشرطة قائلًا:

- جريمة قتل هنا، زوج قتل زوجته الخائنة في العنوان التالي.

الفصل الثالث

لم تعد الحياة كما كانت بالنسبة له، حتى في حينها لم تكن المثلى، مالت بجسدها كغصن ريحان لم يعتنِ به، ذبل قوامه فمال مستسلمًا، يود أن تحصد شفتاها ثمرته، تَمَنَّع وهو الراغب، تقمص دور الراهب، فتَمَنَّع برهبانيته، وهل تعجز الرياح على أن تطيح بحباتِ رملٍ قد شيدت من جبينه مستقرًا لها!!

إنحنى الغصن حتى ثمل من أنفاسها كشارب الرحيق، سكرة الحب، عانقها، وهل تعجز خيوط الشمس على أن تلتف حول غصنها فيطرح ذهبًا من طين الأرض العكر!! إنحنى هو الآخر، إرتوت فإنتصب عودها وظل هو على انحناءته حيث السراب، الهوى يهوى به فلامس جبينه الأرض مرة أخرى، راهب يسجد فتطرح الأرض ذهبًا.

سيدي القاضي .. حضرات المستشارين.. الماثل أمامكم ما اقترفه ليس بجريمة، نعم قتلها، قتلها دِفاعًا عن عرضه وشرفه و ها

www.maktabbah.blogspot.com
هو الآن مكبلا خلف تلك الأسوار الحديدية، قتلها ولو كان العذر المخفف في صالحي وحتى ولو لم يكن لقتلتها أنا ألف مرة، لقد خانته وهل من بعد الخيانة ذنب!! لا أستحي أبدًا أن أبوح بذلك، مَنْ منا بلا خطيئة!! ولكن للخطيئة عقاب، الثواب والعقاب هما أساس الله في بنيانه، يا أهل العدل.. ألتمس براءة موكلي.. براءة أبي.

قالها خِتامًا لمرافعته ثم هوى على المقعد الأمامي المواجه للمنصة القضائية في انتظار حكم العدالة.

- محكمة

قالها حاجب المحكمة ذو الجسد الهزيل بصوت جهور وبقوة لا تنعكس على مظهره أبدًا، دخل القضاة ثم اعتدلوا في جلستهم، تقدم رئيسهم كي يتلو قضاءه النهائي، بعد الإطلاع على الأوراق وسماع دفاع المتهم وما جاء في مرافعة النيابة العامة وحيث أن دفاع المتهم لم يقدم ثمة دليل على خيانة الزوجة مما إستحال إثبات العذر المخفف في حق المتهم؛ ليظهر لنا جليًا أن المتهم قد خطط ودبر بنية مسبقة وبإصرارٍ واضح على قتل زوجته السيدة نهال جابر عودة مع سبق الإصرار والترصد، وفقًا لكل ما سبق حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم نبيل الشيشيني بالإعدام شنقًا.

انتفض جسد مراد، حاد بنظره ليرى والده وقد إرتسمت على وجهه ملامح الذعر صائحًا:

- أين الفيديو.. أين الفيديو.. التسجيل الذي أريتني إياه يا مراد

لم يلتفت أحد لحديثه بينما ضج الحاضرون بعدما سمعوا حكم الإعدام، ذلك هو الحال دائمًا في تلك النوعية من الأحكام، صياح وعويل.. تأفف ودهشة.. إستنكار ومصمصة للشفاه من فرط صدمة إزهاق روح بشري مهما كانت خطيئته.

تابع من خلف القضبان قائلًا:

- نعم قتلتها لأنها خائنة إلا أن هناك ما يثبت، مراد أخْرِج التسجيل، يا بني..أرجوك.

انخفض الضجيج تدريجيًا، بدا على مراد علامات الامتعاض والقلق، تظاهر بالتماسك كي تحمله قدماه بضع خطوات أخرى

- هلاوس لمحكوم عليه بالإعدام

قالها وهو يتقدم تجاهه، وقف أمامه بعد أن اتكأ برأسه على السور الحديدي للقفص قائلًا:

- عجبت لأمرك تريد توريطي وأنت على بعد دقائق من الموت.

أمسك القاضي بمطرقته ليضرب بها بضع ضربات من شأنها الأمر بالسكوت وتبعها قائلًا:

- رفعت الجلسة

حمل مراد حقيبته واتجه مرتعد الجسد على الفور إلى الخارج، ينتظره بائع الحظ وهو يمسك بالسيجار الذي لا يفارق يده مطلقًا، مضى في طريقه دون أن يلتفت له، تبعه مُسرعًا كي يحاول اللحاق به، ركب مراد سيارته بينما فتح باب السيارة المجاور للسائق ثم جلس، نظر مراد إليه قائلًا:

- أنا لا أصدق أنني وافقتك على إخفاء الفيديو كي يعدم أبي من أجل المال، كيف ارتكبت ذلك الجرم!! ومن أجل ماذا؟

ضرب بيده طارة القيادة من أمامه بضع ضربات حتى آلمته ألمًا شديدًا، كل ذلك ولم ينطق بائع الحظ بكلمة واحدة، يراقبه دون حديث، ينصت له دون مقاطعة، وما أن إنتهى حتى تكلم قائلًا:

- هل أجبرتك على شيء؟

- أجابه بلا..

تلك هي المصيبة لم يُجبر أبدًا على فعل ذلك، كان مجرد عرض وافق مراد عليه في محاولة للتخلص من ثلاثة في ضربة واحدة، وها هو قد نجح إلا أنه يشعر بإثم كبير، لم يقتل دجاجة من قبل، يضاجع العاهرات، يشرب الخمر، يبيع مبادئه بأبخس الأسعار، أما القتل لم يراوده مطلقًا أن بإمكانه أن يفعل.

صحيح أنه لم يقترف شيئًا بيده، لكن الشريك دائمًا ما يستمد عقوبته من الفاعل الأصلي، هكذا تعلم، كل أموال أبيه

ستؤول إليه، زوجة أبيه قد تخلص منها، حتى أخاه شريك الأموال قد ذهب بلا رجعة، غنيمة كبرى، نزاع مروع ينخركالسوس في جسده، الشيطانية والملائكية، ذلك الصراع الأبدي، صراع ليس بجديد، منذ بدء الخليقة وهم في تلك الدائرة لن يخرجوا منها أبدًا، مهما كان الحال ومهما إتحدنا أو افترقنا، مهما كانت درجة البطش أو الجود.

وضع بائع الحظ يده على كتف مراد ثم قال:

- وماذا ستفعل إذا أخبرتك أن ذلك الفيديو مقتطع من كواليس تصوير أحد أفلام زوجة أبيك السينمائية وبالتالي سيعدم أبوك لا محالة حتى إن ظهر الدليل، لكون ذلك المشهد لا يعد دليلًا من الأصل على ثمة خيانة قد حدثت.

انتبه مراد قائلًا:

- ماذا!! أنت شيطان؟

- وما يضيرك في ذلك الأمر، أنْصِت، لقد شعرت بماساتك إذًا الحل معي، ما رأيك؟

نظر إليه مراد في حالة عدم فهم لما يقوله

تابع قائلًا:

- ستدرك كل شيء في ميعاده، في العجلة الندامة وأتمنى ألا تندم أبدًا، في لعبتنا هذة الندم لا يعقبه شيء سوى

ظلام، اذهب ومارس حياتك، النساء تنتظرك وروان أيضًا تنتظرك، مغامرة جديدة يجب أن تفوز بها، أعرفك بارع في حصد البطولات.

لم تعد روان تحتمل المكوث في غرفتها أكثر من ذلك بعدما تركت عملها وأصبحت من العاطلين، باتت تقضي طيلة الليل على السطح مفترشة الأرض تتأمل حركة النجوم، الفراغ القاتل إستوطن أحشائها، لم تعتد على ذلك؛ فالعمل رغم إرهاقه إلا أنه كالمسكرات يجعلها تنسى تمامًا كل ما تمر به، إما في ساعات العمل وإما بعد إرهاق نهاية يومه المضن، حينها يكون لا مجال للتفكير في شيء من شدة التعب، اليوم رغم أن جسدها اعتاد خمول ما بعد الراحة إلا أن عقلها قد أصابه نشاطًا فكريًا مهيبًا

دخل عادل عليها بملابس مبتلة وبها بعض من آثار الشحم والزيوت، بمجرد أن رأته حتى تعلقت في عنقه، تشبثت بها دون أن تلامس قدماها الأرض، ظهوره دائمًا بالنسبة لها كرؤية الهلال حين كنا صغار، الفرحة العارمة التي تجتاحنا حين نتيقن من كونه هلال العيد، فرحة طفولية بريئة، هو الجانب النقي لها، وإن كانت قد أدركت مؤخرًا أن الدنيا لا تؤخذ على محمل صافي طيلة الوقت، وجوب الإتشاح بالبياض أو السواد خديعة كبرى، هناك لون رمادي يجب أن يقتنص منه الجميع فرصة، أهداها حقيبة صغيرة بداخلها العطر المحبب لقلبها، هدية مقتطعة من أول راتب يومي يقدر بخمسين جنيهًا نظير عمله في إحدى ورش السيارات،

وإن كان ليس العطر الأصلي إلا أنها تعي جيدًا القيمة الدفينة، كونه قد تذكرها في أيام حالكة السواد لهو فوز عظيم.

نظرت إليه وكأنما تعانقه بعينيها ثم قالت:

- والله إن تلك الهدية أعظم من كل ثروات الدنيا، مهداة من يد أود تقبيلها بالعشي والإبكار.

ينتشي سعادة حين يسمع منها تلك الكلمات، بشرته القمحية وجسده النحيل لم يكونا حاجزًا أمام حبها له، الوسامة نسبية، تراه وسيمًا حد الفتنة، احتضنها وناداها يا صغيرتي كما تعودت منه ثم قال:

- أنتِ بالنسبة لي ثقبٌ في بابٍ موصد يتسلل منه بصيصٌ من نور يصارع الظلمة رغم هوانه، فهل من بعد ترميمه حياة!!

صمت قليلًا بعدها ثم قال:

- أما آن الأوان كي نتزوج؟

تبغض دائمًا ذلك الطلب، قمة الألم أن تطلب من شخصٍ مبتور اليد أن يصافحك، يعتريه حسرة وحشية، كونه يود المصافحة ولا يستطيع لهو موت مقنع، يود لمس جسد الحبيب ولو لمرة، ما فائدة الحياة دون ذلك؟

سر ما يكمن داخلها لا يدركه أحد سواها، هي تشتهيه أضعاف ما يشتهيها، لكن ما بالجسد حيلة، كلما اقتربت من شفاهه كلما أبصرت سرها يرفرف عاليًا في سماء مخيلتها.

أجابته في ثبات:

- سنتزوج، حتمًا سأضاجعكِ أنا لكون مشاعري قد انصهرت وذاب الشوق داخلي ولم يعد بإمكاني التحمل.. قريبًا.. قريبًا جدًا.

يسود الظلام في منزل مراد كما ساد بصدره، لا تنطفيء سيجارته أبدًا، يشعل السيجارة من السيجارة وكأنما يود الانتحار، فعلته تلك لم تمر مرور الكرام على ضميره، يؤلمه بقسوة، يخبره بأن كل ما ارتكبه لا يجوز في عُرفِ البشر، وباعتباره بشريًا مهما وصل طمعه عنان السماء لم يكف لحظة عن التفكير.

نهض كي يعد لنفسه قدحًا من القهوة يساعده على شق ذلك الطريق للوصول لبر آخر غير تلك الهشاشة التي يقف عليها، و في طريقه لاعدادها انتبه لصوت الباب

من سيأتي في ذلك الوقت؟

سأل وأجاب في آن واحد:

- من المؤكد أنه ذلك الداهية المسمى ببائع الحظ.

فتح الباب إذ به يفاجأ أن روان هي من تنتظر في الخارج، من صدمته تلعثم وجاهد على ترتيب كلماته قائلًا:

- أمرٌ غريب

- هل سمحت لي بالدخول؟

- بالطبع تفضلي.

جلست روان على الأريكة بينما جلس مراد في مواجهتها تمامًا، إنمحت ذاكرته تمامًا من كل شيء سواها، يشعر بأنه يميل لها كل الميل، إنتشى ريشه كالطاووس بعدما زارته بنفسها في بيته دون مجهودٍ شاق منه، قال في نفسه:

- أين غريب الأطوار ليرى أن مراد لا يقوى عليه صنف النساء أجمعين؟

باغتته قائلة:

- بائع الحظ

انعقد حاجباه في توتر:

- من؟ كرري ما قلتيه مرة أخرى؟

- بائع الحظ، جئت لأحذرك، يريد مني خداعك لأسلب منك أموالك بطريقة لا يعلمها إلا هو، وأنا لن أفعلها، فضلت تحذيرك على السكون لعلكم لازلتم في لقاء.

حاول مراد تجميع أية خيوط إلا أن محاولاته باءت بالفشل، ذلك النبغة لم يسعفه ذكاءه في فهم أي شيء، الشرق مع الغرب في لقاء الشمال والجنوب!!

جئت لأحذرك لأنني لست من الفتيات اللواتي يسرقن ما في يد غيرهم، إن احتجتني ستجدني في تلك الحديقة في ذات التوقيت الذي اعتدت عليه، رغم أنني الآن بلا عمل ولا مال إلا أنني لا أترك شجرتي وحدها أبدًا.

وماذا علينا أن نفعل الآن؟

سِرْ خلفه للنهاية، لكن كن حذرًا، فهو يملك دليلًا لأبيك ينجيه من حبل المشنقة، لقد أخبرني بذلك، أنت الآن أصبحت على علم تام بما ينوي...

الخَسيس

صمت بعدها قليلًا ثم قال:

ـ ولكن ما الذي يثبت لي أنه يملك حقيقة أي دليل؟

هذا شأنك أنت.. انتهى دوري أنا

قالتها ونهضت كي تغادر، طلب منها أن تنتظره لحظة، اتجه إلى الداخل ثم خرج سريعًا، مد يده لروان بمبلغ مالي وترجاها أن تأخذه كي تشتري لنفسها شطيرة التفاح التي دائمًا ما تحب أن تأكلها، تجاهلته تمامًا واتجهت إلى الباب ثم إلتفتت له قائلة:

ـ أنا لست عاهرة؛ فالعاهرات لا يأكلن شطائر التفاح يا عزيزي.

إبتسم مراد وأغلق الباب خلفها برفق.

يوم آخر يمر في تلك الدائرة اللعينة التي بدأها بائع الحظ بالاشتراك مع مراد، هو من ورط نفسه فيها من البداية لكنه إعتاد على أن يكمل ما بدأه ولا ينسحب من منتصف المعركة مهما كلفه الأمر من خسائر.

اتجه مراد في الصباح الباكر إلى أحد زملائه من العاملين بالسجل المدني، طلب منه أن يبحث عن ذلك الاسم كي يحصل على أكبر قدر من البيانات اللازمة، سأله زميله عن الاسم فأخبره أنه لا يعرف سوى الاسم الثنائي:

ـ خيرت اللواتي.

رغم صعوبة الأمر إلا أن الواسطة دائمًا ما تجيز كل شيء مهما كان بالغ الصعوبة والإدراك، بحث بالاسم على الحاسوب ومن حظه لم يجد سوى خيرت اللواتي واحد فقط مسجل على قاعدة البيانات، أخبره بأنه قد توفى منذ ما يقرب من ثمانية وثلاثين عامًا وهو في شبابه، في الثلاثين من عمره ورغم قدم الوثيقة إلا أن الحاسوب لا يخطيء أبدًا.

حصل مراد على صورة منها ووضعها في قميصه وانصرف، ركب سيارته دون أن يتحرك، ظل راكدًا يفكر في ماهية ذلك الرجل، كيف لإنسان أن يموت على الورق وهو في الحقيقة على قيد الحياة؟ بالطبع هناك قصة عاتية وراء ذلك الخبل، الوضع بات أكثر صعوبة، يواجه كائن هلامي لا أصل له، وما يشد أحد على الحياة إلا وغلبته، وما أن همّ على التحرك حتى فُتح باب سيارته بواسطة بائع الحظ الذي ركب بجواره قائلًا:

- هل تأكدت بنفسك من كوني إنسان ميت؟ احذر مني بعد ذلك

ثم ابتسم قائلًا:

- لا تخف.. أنا أمزح معك وفقط.

وحين شعر بأن مراد سيتصرف تصرفًا غير لائق، مد يده بتلك الابتسامة الصفراء بهاتفٍ آخر، أمسك به مراد قائلًا:

- وما بداخله تلك المرة؟

ضغط على زر التشغيل، حتى سمع ما لم يكن يتوقع قط أن تتلقى طبلة أذنه إيقاع من ذلك النوع في يوم من الأيام، صوت والده يعترف بجريمتيّ قتل، الأولى جريمة القتل الخاصة بقضية مراد والتي أخبره بائع الحظ سلفًا بأنه سيمنحه دليل براءة موكله فيها. سيحصد موكله البراءة ليحل محله أبوه بدليل قاطع لا يقبل الشك أو التأويل باعتراف مسجل، والثاني اِعتراف كامل بقتل زوجته الفنانة المشهورة.

- ما ذلك الهراء؟

بمجرد أن صاح بها مراد حتى قاطعه صوته قائلًا:

- المجنون لا يحاسب يا عزيزي، المصحة النفسية هي نهاية المطاف، لماذا لا نستثمر ذلك؟

ثم مد يده ببضع أوراق أعطاها له قائلًا:

- هذا لك.

إلتقطهم مراد مستفسرًا عن فحواهم، أجابه بائع الحظ:

- إنها أوراق تثبت أن أباك مختل عقلي، شهادة من أكبر المستشفيات الحكومية و بعض الاقرارات من الطبيب المعالج له، مع بعض من روشتات العقاقير التي كان يتناولها كي تخفف حِدة مرضه.

وتابع:

- مسكين

إنتبه مراد لما سمعه، الأمر غريب جدًا، بارقة أمل جديدة تلمع في الأفق، مبهر ذلك الرجل في تفكيره، كيف لبشري أن يفكر هكذا!! ما كنية ذلك الكائن وكيف حصل على تلك الأوراق؟

أسئلة كثيرة تجول بخاطره، امتزجت بذهوله ورهبته من الموقف، قاطع تفكيره قائلًا:

- بالطبع تفهمت ما قررته، أبوك مختل عقلي، سيودع إحدى المصحات العقلية كعقوبة بديلة عن الإعدام

لكونه مجنون، مع قضية حجر لن تأخذ من وقتك الكثير ستصل أيضًا للهدف المنشود، أمواله ستصبح أيضًا في خزانتك دون نقطة دم، ما رأيك في قلبي الحنون؟

خزنة موصدة مملوكة للسيد نبيل الشيشيني «والد مراد» مودعة بإحدى البنوك، لا سلطان عليها ولا قرار إلا لمالكها أو من يمثله أو من ينوب عنه، كانت سرًا لم يُفصح عنه إلا بعد أن حصل مراد على حكم الحجر على والده قبل أن يودع المصحة النفسية حين أصدرت المحكمة حكمها الفصل بكونه مجنون، والمجنون قد رفع القلم عنه، رغم أن مراد أصبح يعلم ما في جعبة ذلك الرجل بعد أن حذرته روان إلا أنه لا مانع عنده أن يستفيد أولًا ثم يفكر في كيفية التخلص منه بعد إتمام مهمته، يكفي فقط أنه يعرف ما في نية عدوه، ذلك هو الانتصار بعينه، بات مراد هو المتصرف الوحيد لكافة أموال أبيه ومدخراته، علم بأمر تلك الخزنة وهو يراجع ملكيات أبيه بالبنوك، دله المدير عليها فما كان من حتمية فضها مفر.

اتجه مراد بصحبة مدير البنك لمعرفة ما تحويه، أخبره بأنها مغلقة منذ زمنٍ حتى أن أباه لم يفتحها منذ أن وضعها هنا، وباعتبار مراد الآن مالكا أصيلًا فعليه أن يفتحها بيده، أمسك مراد بالمفتاح وفعلها، لا شيء بالداخل سوى مجموعة من الأوراق مجمعة في

مجلد واحد ذي غلاف أبيض ناصع لا عنوان لها ولا اسم، أخذها ووضعها في حقيبته وهو في حالة انزعاج، كل ذلك الوقت والثرثرة مع مدير نمطي مريب من أجل دفتر من ورق، هكذا يقول في نفسه بعدما تركه وانصرف متجهًا إلى منزله، وضع حقيبته على المنضدة وراح يتأمل الأموال المرصوصة فوق بعضها كالبنيان على سريره، كلها تحت تصرفه، ملذات الدنيا التي توارت خلف العجز المادي باتت نصب عينيه، لا عائق بينهم ولا حاجز، ارتمى على السرير ليغرق في بحر المال، يصارع بيديه محاولًا الطفو إلا أن جسده ينغمس أكثر، نهض مُتجهًا إلى حقيبته التي وضع فيها ذلك المجلد الورقي ليستكشف ما بداخله، من الممكن أن يكون هناك شيكات بأرصدة أخرى أو عناوين لأماكن بها أموال لا يعرف عنها شيئًا، أمسك بالمجلد وأخذ يقلب فيه بعشوائيه، إنه شيء يشبه المذكرات، مدون بداخله أحداث عدة، إنه خط أبيه فهو يعرفه جيدًا،حتى رائحته تشبثت بالورق ولم تفارقه طيلة تلك المدة، أخذته تلك الرائحة لحنين يجلد ذاته ولندم يصحو بعد كل غفوة طالت أو قصرت، ومضات مؤلمة تبعث فيه روح متمردة على كل ما فعل، روح تود أن تنفلت لتستقر هناك بالمصحة النفسية بجانب أبيه، إلا أنه سرعان ما يقضي عليها برائحة المال، رائحتة فجة، تقتحم أنفه فتختلط بأجزائه لتهزم كل ما يدور بداخله، حتى وإن كان يخص أب ألقاه بيده في جانب مظلم لتلك الحياة والتي لا يعرف عنها أحد شيئًا.

بدأ في الاطلاع على ذلك المجلد، تعمق النظر بالصفحة الأولى، إستعد وبدأ في قراءة ما دون في صدره.

القاهرة 1962

حينما تعود بالذاكرة فلا تتخدع وتسترجع ما مضى بالأبيض والأسود كما عاهدت رؤية تلك الفترة سينمائيًا، الحياة ملونة، طبيعية إلى حد ما، ألوان بشرية وصناعية كما هي في عالمنا الآن، بل يكمن الفارق في كون الألوان مزدهرة دون أن ينحتها الزمن. لم تختلط بها ذرات العفن بعد، قميصه مفتوح الأزرار حتى الصرة والبنطال ذو قدم دائرية لا يظهر منها إلا فم الحذاء، يركض في اتجاهه طفلٌ صغير يصيح:

- المعلم عثمان.. المعلم عثمان.

ذلك المعلم الذي ينتظره بائعي اليانصيب يوميًا في تلك المنطقة من أجل توزيع الأوراق عليهم كي يبيعونها فيسترزقون منها، المشترون دائمًا هم أبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة مثلنا تمامًا، رغبة منهم في الثراء السريع، نحن نسرق بعضنا البعض، لم أر ثريًا واحدًا أقدم على شراء اليانصيب، الأثرياء لهم مسلكهم الخاص بالتجارة أو بالاستثمار أو بالسرقة أحيانًا، أما الفقراء فدائمًا ما يبحثون عن الحظ لكونه لا سبيل غيره للنجاة.

إستلم نصيبه من أوراق اليانصيب، بمجرد استلامه للأوراق صاح بملء فيه:

- البريمو.. البريمو.. يانصيب للبيع.. حقق كل أحلامك.

الجميع يحبون التعامل معه حُبًا جمًا؛ لكون الورق الرابح دائمًا ما يكون هو مصدره، خيرت اللواتي أو كما ينعتوه "**ببائع الحظ**" فالحظ دائمًا ما يكون ملك يمينه، فأل خير لهم جميعًا أن يكون ورقة اليانصيب مشتراه من بائع الحظ، رغم صغر سِنه إلا أنه يمتلك ذكاء خارق لم يتمتع به أحد من قبل. حتى هيأته وطريقته مختلفة تمامًا عن غيره من البائعين، معظمهم يتخذون من السماجة في الطلب منهجًا في البيع، يتقمصون أدوار الشحاذون في طريقة عرضهم لما يبيعون، أما هو فيقف مُهندمًا ثابتًا ينادي على بضاعته دون أن تهتز كرامته أو تُنتهك. بينما أقف أنا نبيل الشيشيني على مسافة ليست بعيدة منه، :غراب البين: كما يطلقون عليّ، نذير شؤم أن تشتري مني ورقة، لم يربح أبدًا من تعامل معي، نصحني بعض من زملاء المهنة أن أتخلى عن إمتهانها، إلا أنني لم أفعل لكونها إرث ولن أتركها مهما حدث، مهما ابتكرت أساليب شاذة للصياح ومهما كانت طبقة صوتي في النداء، لا يقترب مني إلا القليل، القليل جدًا، نسبة العشرة بالمائة التي أتقاضاها من كل ورقة مباعة باتت قليلة جدًا وفقًا لحجم مبيعاتي الضئيل، أما الآخر يلتف حوله الجميع، أستشيط غضبًا كلما شاهدت تلك الصورة،

حذرته كثيرًا من الوقوف في تلك المنطقة، إنها تخصني ولا يجرؤ كائن من كان على مزاحمتي في رزقي.

إقتربت منه، وما إن هممت على الاشتباك معه حتى تجمدنا نحن الاثنان حينما عبرت من أمامنا تلك الحورية، نسيم الستينات كان يدرك جيدًا كيفية مداعبة الشعرالحريري، تنورتها التي ارتفعت كي تتحسس أشعة الشمس تلك السيقان الشمعية، جسدها ناصع البياض تخجل أن تطيل النظر إليه فسرعان ما تحيد بنظرك عنوة، تمر من هنا يوميًا وكأنها تخطو فوق قلبينا، تعلقنا بها نحن الاثنان، يريد كل منا أن يفوز بقلبها أو بجسدها أيهما أقرب، مرت من أمامنا كالريشة التي تدفعها الرياح دفعًا دون مقاومة منها ردًا أو ابتداءًا، وضعت يدي على وجه خيرت قائلًا:

- تزاحمني في رزقي والآن تزاحمني في فتاتي، إنك شخص مجرم

دفعته من أمامي حتى تبعثرت الأوراق من يده، نهض مسرعًا ولكمني لكمة قوية أطاحت بي أرضا، اقترب مني قائلًا:

www.maktabbah.blogspot.com

- لن تنظر لك يا غراب البين، احذف تلك الفكرة من عقلك فورًا.

كنت شديد الحساسة رغم عصبيتي، أمتلك مزاجًا متقلبًا، و دائمًا ما أتورط في مشاكل عدة، استحيت بمجرد أن ناداني بذلك اللقب، هربت من أمامه باحثًا عن ما يلتهمني لأتوارى عن الأعين، أدعو الله ألا يكون ما قاله قد طرق مسامع تلك الفتاة وهي تقف

بالقرب منا في انتظار السيارة، إذا علمت بأمر ذلك اللقب ستكون الفاجعة مزرية، ركضت مسرعًا حتى اصطدمت بها في غفلة، سقطت من يديها أغراضها وسقط ورقي هو الآخر، استمريت في الفرار حتى استقريت خلف إحدى السيارات، شعرت بشخص ما يقترب مني، أخرجت رأسي بحذر كي أستكشف ما في الخارج، وجدتها تتقدم باتجاهي، تصببتُ عرقًا وشعرت برجفة تسري في جسدي برمته، اقتربت حتى أصبحت ملاصقة لي تمامًا ثم قالت:

ـ ما بك؟ هل هناك خطب ما؟

وددتُ أن أبتسم، وددتُ لو أخبرها أنني اِخترت ذلك المكان خصيصًا كي أراقبها يوميًا وهي تتمايل بخصرها، أود أن أخبرها بحبي الكامن في أقصى النقطة العميقة بالقلب، طالت فترة السكون في الخارج بينما داخلي ضجيج لا يسكن، آه لو كان بإمكان المرء أن يمنح الآخرين خاصية الاطلاع على ما في القلب دون أن يكون اللسان طرفًا، تابعت بلطفها المنعكس على تكوينها:

ـ هذه الأوراق خاصة بك، تفضل

ـ تكلم.. تكلم.. تكلم..

ظللت أقول ذلك في محاولة لتشجيع نفسي على الحديث، إلا أنها قد ابتعدت عني بضعة أمتار، ناديتها:

ـ يا آنسة.

قطعت حركتها وتوقفت، اقتربت منها قائلًا:

- أعتذر كثيرًا عما بدر مني.

- لا عليك، أظن أنك تعمل بائعًا لليانصيب؟

- كيف علمتِ بأمر ذلك، هل تعرفينني؟

إبتسمت في غرابة:

- علمت بذلك من أغراضك التي سقطت منك.

أشعر بِكم من البلاهة لم يتمتع به أحد من قبلي، لا أدرك معنى الكلماتً التي تخرج من حلقي، قلت في عجالة في محاولة لانقاذ الموقف:

- نعم كنت أختبرك.

مزاح يزيد الطين بلة، تركتها وانصرفت دون أدنى مقدمات، وبمجرد أن تقدمت بعض خطوات حتى إلتقيت بالمعلم عثمان ذي الوجه المتجهم العبوس، إبتلعت ريقي بصعوبة بالغة حينما عنفني قائلًا:

- تترك عملك من أجل الركض وراء الفتيات، أرني كم مبيعاتك اليوم؟

أخذ ما في حوزتي من ورق و بدأ في فرزهم، لم أبعِ سوى ورقة واحدة فقط لا غير، شعرالمعلم بضيقٍ يغزو صدره قائلًا:

- تلك هي الفرصة رقم مائة التي منحتك إياها، أعتقد أنه أصبح من الصعوبة أن أمنحك أخرى، لا ترني وجهك مجددًا.

تذللتُ إليه كي يمنحنى مجددًا فرصة أخرى، أخبرته بأن لدي خطة محكمة سوف أبيع بها كل ما لدي من أوراق، بالطبع أنا أكذب، لا أملك أية ألاعيب أو مهارات تمنحني تلك الميزة، وافق على مضضٍ، أمطرت السماء فجأة، إحتميت بأحد الأكشاك الفارغة بجانب الطريق، خشيتي من تبلل بضاعتي كان أشد من خشيتي على نفسي و ملابسي، دقائق ووجدته يأتي ليجلس بجانبي، إنه بائعُ الحظ كما يطلقون عليه، يحب دائمًا أن ينادوه بذلك اللقب، بينما أتعمد أنا أن أناديه باسمه، خيرت، ولا شيء غير ذلك.

إقترب مني قائلًا:

ـ لماذا تحمل داخلك كل ذلك البغض تجاهي؟

سؤال في محله، بالفعل أنا أحمل في طياتي كل معاني البغض والكراهية تجاه ذلك المحظوظ، منحه الله كل شيء، الوسامة واللياقة ولسان يقطر عسلًا مصفى، والحظ، آه من ذلك الحظ، ولم يمنحني أنا ثمة شيء، دائمًا ما تكون النصيحة بأن أحمده وأشكره على ما أنا فيه، ما أنا فيه؟ تلك العبارة الهزلية، استفهامية واستنكارية في آنٍ واحد، أين ذلك الذي يجب أن أحمد الله عليه؟ هم لا يشعرون بحجم المعاناة، بحجم الجوع والعطش اللذان ينهشان في جسدي كالطاعون، أبي الذي لازمه الفقر كالخِل الوفي حتى مات على مشارف المدينة وهو يبيع الحظ دون أن يزره مطلقًا هو الآخر، وأمي التي بالكاد أستطيع

الإنفاق عليها دون نفسي، لن أموت أنا الآخر مستسلمًا، وإن كانت تلك المهنة هي الإرث، فلن يكون الفقر نصيبي منه أبدًا، كل تلك الأفكار تراودني عن نفسي من حين لآخر، قطرات الماء لا تُجدي نفعًا إن كان الري بالغمر هو الأسلوب المتبع، قلت بعد صمتٍ:

- الأيام يا صديقي هي من غرست في داخلي كل شيء، لست مخيرًا ولم أكن يومًا كذلك

قطعًا لم يفهم شيئًا مما قلته ولن، بالطبع إن تحدث مع تلك الفتاة ولو بحرف واحد ستسقط أسيرة في شباك غرامه من الوهلة الأولى، ليس بسبب أي شيء سوى الحظ، الحظ اللعين.

القاهرة 1965

توفيت أمي، تركتني وحيدًا أصارع الحياة وحدي، لم تكن شريكًا في الصراع بعضلات مفتولة أو ما شابه، كانت سندًا يلقى عليه الحمل آخر الليل، جلست في حجرتها ليلة وفاتها أتذكر كل ما تلفظت به قبل فراقها، دموعي تنسال بغزارة دون عائق، كانت تخبرني دائمًا بأنني على قدر المسؤولية، ومهما كان الحظ عنيدًا كارهًا لرؤيتي إلا أنها طلبت مني أن أتوسل إليه دائمًا، وأن أستعين بالصبر لعل الزيارة تكون قريبة، بالطبع لن أستجدي أحدًا ولن أتحلى بطول البال، فمن يدري لعل الموت يكون أسرع من الحظ، سأقد قميصه من قبل وأنا في مواجهته، صورة فتاتي

تتشكل في الأفق، يختلج في صدري مشاعر تجاهها للمرة الأولى التي أشعر بمثلها، نقاء وسمو واتزان في حياة أود أن أحياها، في الغد سأعترف لها وليكن ما يكون، الخوف من المصارحة سيهدر الوقت وسيولد فراق آخر، تلك هي السنة الأخيرة في دراستها، أنا أحسبهم بالليالي والساعات، أنا في أمسِ الحاجة إليها، لا بُد من المكاشفة مهما كان الرد، أتذكر أنني لَم أنم ليلتها، أتقلب ذات اليمين وذات الشمال، عيناي محدقتان في أرجاء الغرفة، وبمجرد أن إستقر عقرب الساعات على السابعة صباحًا نهضتُ مسرعًا كي ألحق بها، هيئتي اليوم مختلفة، لمعت حذائي جيدًا وارتديت ساعتي التي لا تحتل جزءًا من جسدي إلا في المناسبات، وهل هناك أهم من مناسبة لقاء الاعتراف الأول!!

رائحة الهواء اليوم مختلفة، أستنشق أملًا مغلفًا بوميض حزن خافت لا يراه إلا المتعمقين داخلي، ومن اليوم بإمكانه الرؤية الدقيقة تلك، ماتت من كانت تراه ساطعًا يعمي الأعين، أنا الآن في اتجاه من ستكون في أقصى النقطة العميقة، وصلت إلى هناك في انتظار المعلم كي أستلم منه أوراقي، مر الوقت ولم يأت، الكل هنا في انتظاره، أعلم عنوان بيته، على مسافة ليست بالبعيدة من هنا، قررت أن أذهب إلى هناك خلسة كي أثبت له كم النشاط الذي أتمتع به، أعلم أنه يعيش بمفرده بعد أن طلق زوجته، وصلتُ إلى هناك، إلى الحي الذي يقطن فيه، يعيش في عقار متهالك إن بصقت عليه سينهار، يذكرني بأبي، عاش طيلة عمره يبيع المال

ولا يحصل إلا على الفُتات، صعدت إليه بالدور الثاني، ظللت أطرق الباب قرابة الربع ساعة دون مجيب، وما أن بدأ الملل يتملك مني حتى سمعت صوتًا محشرجًا يأتي من خلف الباب وصوت قفل يُفتح ببطءٍ شديد وصوت ارتطام بعده، اقتحمت المنزل فوجدته ملقى خلف الباب، سعال شديد يحاوطه وعين زائغة وجسد لا يقوى على الوقوف، لمحت ببصري وأنا أساعده كي يقف أوراقًا ملقاة على المنضدة وبجانبها مبالغ مالية، ها هو الحظ يلعب لعبته، تتذكرين يا أمي حينما أخبرتك بأنني لن أتوسل أبدًا، سيأتي الحظ راكعًا مقيدًا تحت قدميّ، أخذت كل شيء ودلفت إلى داخل الغرفة فعثرتُ في دولابه على أموال أخري، لم أترك مليمًا واحدًا، تركته يلفظ أنفاسه الأخيرة وأغلقت كل الأبواب من خلفي ومضيت في طريقي وكأن شيئًا لم يكن، ركضتُ نحو منزلي ووضعت بها كل ما سرقت وعدت إلى مكان وقوفي مرة أخرى، لم تمر قرابة النصف ساعة حتى أتى ذلك الطفل مساعد المعلم قائلًا:

- مات المعلم عثمان.. مات المعلم عثمان.

ركضنا جميعًا في اتجاه منزله، أثق في أن الجميع اتجهوا إلى الداخل باحثين عما يسرق لا كي ينقذوه، الوحيد الذي كان يحاول انقاذه هو خيرت، بائع الحظ ذو القلب المرهف، شاركته تظاهرًا مني بالمحاولة، إلا أنه قد فارق الحياة نتيجة ذبحة صدرية، تجول خيرت بالداخل هو ومن معه ولم يعثروا على أي شيء سوى بعض من أوراق اليانصيب، اقترب مني وهمس في أذني قائلًا:

- كم من المال أخذت من ذلك الرجل؟

تظاهرتُ بالضيقِ والصدمة، انقلبت ملامحي تمامًا، بالطبع عيناي قد فضحتني

- ماذا تقول أيها الأحمق؟

قلت له تلك العبارة وقد غلظ صوتي وهاجت أحبالي الصوتية، إبتسم في هدوءٍ قائلًا:

- نتقاسم سويًا.

لم أرد ومضيت في طريق عودتي، المعلم أيضًا كان لصًا، من أين أتى بكل تلك الأموال إن لم يكن كذلك؟

بالطبع كان محتالًا مزورًا، لا أتيقن إن كان خيرت اللواتي يعلم ذلك أم لا، لكن بالطبع العديد من العاملين بالبنك الذي كانت تجري فيه القرعة يعلمون ذلك.

استيقظ مراد بعد أن غلبه النوم وهو يقرأ تلك المذكرات ولا يشغل تفكيره سواها، اندهش حين قرأ اسم خيرت اللواتي، تلك المذكرات أتت في توقيت مناسب جدًا له، كان يوقن بأن في الأمر ثمة شيء، لكن تفكيره لم يصل به إلى تلك الدرجة، كان صديقًا لأبيه منذ الصغر، بالطبع لقد عاد كي ينتقم لنفسه نتيجة أمر ما قد فعله أبوه فيه، وهو ما ينتظر أن يُكشف عنه في بقية تلك الأوراق، أكثر ما يؤذيه هو الجانب المظلم في حياة أبيه، وكأنه

للمرة الأولى التي يتعرف فيها عليه، شخص آخر غير الذى تربى على يده ولكن لا مجال هنا للدهشة، فما كانت سوى تربية عقيمة أخرجت شابًا يقدم على فعل أي شيء دون النظر لعواقبه، خان أباه وغش الجميع حتى نفسه، يدرك ذلك جيدًا، الغريب أنه يشخص مرضه ويعلم تداعياته جيدًا لكن لا سبيل للإقلاع، المدخن يدرك جيدًا خطورة فعلته إلا أن فكرة الإقلاع لا تراوده إلا حينما تتعقد الأمور تمامًا ولا يكون هناك مخرج سوى التخلي، إلتقط سيجارة من علبته الموضوعة بجانب سريره وأشعلها وأمسك بالمذكرات قبل أن يقدم على فعل أي شيء، أصبح شغوفًا بمعرفة المزيد لكون الفضول قد تغلب، كي يدرك ما يجري من حوله.

القاهرة 1965

في الصباح كانت القرعة، الكل حزين على المعلم، يضربون كفًا على كفٍ ويتغنون بكم كان فقيرًا، عاش ومات على ذلك الحال، البلاهة في أبهى صورها، لا يدركون أنه كان يمتلك مائة ألف جنيه، ثروة هائلة، الكل في مقر القرعة، مكان واسع مقسم إلى عدة غرف، اتجهت إلى الغرفة التي تحتوي على البلية، آلة حديدية في شكل دائرتين، إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة، إنها آلة السحب، يقف خلفها رجلين عند تشغيلها، داخل البلية الكبيرة مجموعة من البليات الصغيرة دونت عليها الأرقام الفائزة

التي تخرج من فتحة صغيرة مخصصة لها إثر كل دوران يقوم به الرجلان، يتم لف الطاولة عدة مرات، كي يختاروا الأرقام الرابحة، وبواسطة موظفي البنك تتم كتابة الأرقام الفائزة بدفتر البريمو، ثم يعلن عنها معنا كبائعين، يخدم علي هذه المهنة ثمانية أفراد لفرز الأوراق وإجراء السحوبات، ويوجد طاولة أخرى داخل الغرفة نفسها يجلس إليها مجموعة رجال يدونون الأرقام الفائزة في دفتر كبير وتدرج الأرقام الفائزة في أوراق ثم في كشوف لتوزع على البائعين، هنا دور الشاري في البحث عن فوزه بجائزة البريمو، بجانب الطاولة أيضًا مجموعة من الرجال ينتظرون بشغف النتائج لعل الفائز يكون منهم، وبمجرد تدوين الأرقام واطلاعهم عليها صاح أحدهم أنا البريمو، أنا البريمو وظل يقفز فرحًا حتى وقع مغشيًا عليه، ابتسم خيرت اللواتي بائع الحظ، يؤكد في كل مرة أنه بالفعل بائع للحظ لا لشيء آخر، البريمو مشترى منه، دقائق ولمحته يتجه إلى الخارج ببطءٍ ومن خلفه الفائز، تحدثا مع بعضهما قليلًا ثم أخرج الفائز من جيبه مبلغًا من المال أعطاهم لخيرت، وبمجرد مغادرته انقضضت عليه ووقفت في مواجهته مباشرة قائلًا:

- تتلاعب بالأرقام، أنت سارق، تتهمني أنا بِعِلةٍ فيك.

قال لي:

- أنا لا أسرق، أنا فقط أتوقع، وإن صاب توقعي تقاسمت مع المشتري الجائزة وإن لم يصب لا خسارة، أنا أتاجر

بحظي، أستثمره، ليست جريمة ولا عقوبة لها، هل تستطيع أنت أن تفعلها يا..... وصمت ولم يكمل.

دعوته بأن يكملها، يا غراب البين أليس كذلك؟ غراب البين الآن يمتلك مائة ألف جنيه يا بائع الحظ

ابتسم ابتسامته اللزجة المعتادة قائلًا:

- سأبلغ عنك كي تقضي ما تبقى من حياتك بداخل السجن

- أدرك تمامًا أنه لن يفعل، من سيصدقه!!

من سيصدق أن عجوزًا يبيع اليانصيب يمتلك مثل ذلك المبلغ إلا إن كان لصًا وله شركاء، هو فقط يود أن يخيفني كي أتقاسم معه ما أخذته، لكن ذلك لن يحدث مطلقًا.

نظرت في ساعتي فوجدتها قد اقتربت على ميعاد وصول فتاتي إلى منطقة عبورها، اليوم أنا في حالة مختلفة تمامًا، معي ما يكفيني من المال وأكثر، اعتزلت مهنة الشحاذة تلك، أنا الآن من الأثرياء، والأثرياء لهم مسالك أخرى لمآرب أخرى، وصلت إلى هناك في الميعاد المناسب، رأيتها، أشعر بأن قلبي تتعثر دقاته بمجرد رؤيتها، استجمعت قواي وشجاعتي واقتربت منها، أعطيتها جوابًا مكتوبًا بدم أوردتي الذي يجري فيها حبها محل الدم، شارحًا في صدره كل المعاني التي تتلعثم بداخلي، عرفت إسمها في تلك اللحظة عندما جذبتها صديقتها من أمامي ونادتها بنادية، إلتقطت مني جوابي في اللحظة الأخيرة ومضت، ومضيت أنا إلى منزلي كي أتأمل الأموال المرصوصة فوق بعضها كالبنيان

على سريري. كلها تحت تصرفي، ملذات الدنيا التي توارت خلف العجز المادي باتت نصب عيني ولا عائق بيني وبينهم ولا حاجز، ارتميت على السرير لأغرق في بحر المال، أصارع بيدي محاولًا الطفو إلا أن جسدي ينغمس أكثر من كثرتهم.

نسى مراد كل ما سبق عندما قرأ اسم أمه، نادية، كم يفتقد حنان الأم، أخرج صورتها كي يطابقها بما وصف في مذكرات أبيه، جميلة جدًا كما الوصف، للمرة الأولى الذي يرى فيها كل ذلك الجمال بعد وصف أبيه لها، ظل يحدق في الصورة ويبتسم كالمجنون، يعكف على تلك المذكرات منذ ساعات طويلة لم يخرج فيها من منزله مطلقًا، شعر بأن شهوته تخاطبه بأنها قد افتقدته كثيرًا، والشهوة حين تصرح بما دفن تعجز النفس المشتاقة على التصدي مهما أوتيت من قوة مصطنعة، بدل ملابسه وأمسك بهاتفه واتصل بأحدهم ثم وضع الهاتف على أذنه قائلًا:

- حنان.. أنا في انتظارك.

الفصل الرابع

غرفة مكتظة بالبشر داخل إحدى المستشفيات الحكومية، تتزاحم أكتافهم من أجل سماع كلمة تنطق من فم طبيبهم المعالج، إما براحة مؤقتة أو بمشقة أخرى في رحلة علاج يمكن أن تطول حتى الرمق الأخير.

في قسم القلب والأوعية الدموية لا مكان لموضع قدم، ضاقت الأرض بما رحبت، الطرقات متكدسة بالبشر والغرف يملؤها الأسى، ولا سبيل للذهاب لعيادات الأطباء الفاخرة؛ فالعلاج على النفقة الخاصة باهظ الثمن، ومشرط الطبيب يفرق في تجارته بين غني وفقير، من يمتلك المال عليه ألا يجلس هنا، ومن لا يمتلكه عليه أن ينتظر، ينتظر وفقط دون شكوى أو تأفف، ينتظر الموت أو الشفاء أيهما أقرب، تجلس روان بين هؤلاء جميعًا تنتظر دورها من الساعة السابعة صباحًا، بدا على ملامحها الضجر حين نظرت في ساعتها، الساعة قاربت على الثالثة عصرًا، ثمان

ساعات في انتظار أن تعبر عتبة عيادة الطبيب بالمستشفى، عبور خط بارليف كان أيسر من ذلك، دقائق وسمعت اسمها، نهضت مسرعة إلى الداخل، جلست أمامه في قلقٍ وترقب، سألها في عجالة عن بعض من الفحوصات التي طلبها منها منذ مدة، مدت يدها بملف كامل إليه، فتحه وظل يقلب فيه لمدة جاوزت الخمس عشرة دقيقة، قاطعت سكونه بتساؤلها:

- أرجوك أخبرني صراحة، هل بإمكاني الزواج أم لا؟

أجابها قائلًا:

- روان أخبرتك مسبقًا بخطورة ذلك على عضلة القلب، وطلبت منك منذ مدة بعض من الفحوصات للتأكد ليس إلا، اليوم وبعد أن ظهر كل شيء جليًا، الزواج يعني الموت، عضلة القلب لن تتحمل أبدًا المعاشرة الجنسية، حالتها تسوء من مدة لأخرى، قَلَت كفاءتها منذ أن كنتِ هنا إلى الربع وهذا نذير خطر.

- إذًا لا فائدة.

قالتها ثم استدارت، احتضنت نفسها، تشعر ببرودة قاسية الملمس، جسدها بات كجذع دون جذر يتشبث في باطن الحياة، بعض من الرياح بإمكانها الآن أن تطيح بها، تقتلع روحها من على وجه تلك البسيطة، لا مفر.. يقود خطاها حرمانها، كانت تصارع الجميع كي تنتصر لرأيها بأن المرأة ليست ناقصة عقل ودين كما يزعمون وفق مفهومهم.. إلا أنها الآن ناقصة عقل ودين وحياة،

الحياة لا تسير دائمًا كما نريد، هناك أناس خلقوا من أجل أن ينتصروا، أما هي فخلقت من أجل أن تشقى، فتاة جميلة مثلها لم يحالفها الحظ بأن تسلب بجمالها من الدنيا ما يرضيها، لا مال ولا بنون، ما فائدة الحرث في أرض بور!! تقف أمام المستشفي ممسكة بالملف العلاجي الخاص بها، تنظر إليه دون أن يجف منبع الدمع، ألقته في صندوق القمامة، آمنت بأن ذلك هو مكانه المناسب، السير دون هدف أمر محمود في أغلب الأحيان.

انتبهت لنفسها وهي تقف أمام ورشة عادل، قادتها قدماها إلى هناك، وقفت على الجانب الآخر المواجه له، تتأمله وقد استلقى تحت إحدى السيارات، أخرج رأسه كي يطلب معدة ما، لمحها، انتفض جسده، خرج مسرعًا وهرول باتجاهها، نظر لها قائلًا:

ـ روان.. ما بك؟ هل هناك خطب ما؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة وديعة، كانت هادئة الملامح مستسلمة اليقين، تخبيء يدها في جيوب المعطف كي تواري رعشتها، قالت بنبرة حنونة:

ـ افتقدتك كثيرًا.

عانقها أمام المارة، للمرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، تخلى عن كثير من تحفظه، رجل محافظ بعض الشيء مثله لا يفعل مثل تلك الأفعال المجنونة، إلا أنه شعر بأن الوهن قد تملكها، جسدها كان يرتعش داخله، تريده، تريد أن تكون معه في سريره، لكن ما باليد حيلة، لكن بالقلب حيل كثيرة لم تنفذ بعد، أخبرته

بأنها على ما يرام، وما تلك الزيارة إلا من باب الاشتياق، تركته ومضت إلى شجرتها، افتقدتها هى الأخرى، تود أن تحكي لها الكثير والكثير، وصلت إليها، تشعر بأن الساعات الفائتة مضت كسنوات عجاف، اغتراب الروح قاتل، قد تتغرب الروح بداخل جسدها مستلقية على سريرها وسط أهلها؛ فقياس الكيلو مترات قياس أكاديمي لا تتعامل معه الأرواح مطلقًا، خبر ما أو كلمة ما، بعض من الذكريات، قرار، قد يقذف بك أي من ذلك داخل غربة لعينة، مسجون في عتمة النفس، المال.. المال وفقط هو سبيل الاستمتاع بما تبقى، لم تعد تفكر روان الآن في أي شيء غير ذلك.

- كنت على يقين بوجودكِ هنا.

قالها مراد بعد أن اقتحم خلوتها، يقف أمامها منشرح القلب، بهجة ملامحه لم يستطع أن يخفيها، فاض به الكيل بعد أن توسلت له روحه بأنها تريد رؤيتها، ابتسمت هى الأخرى رغمًا عنها، المال أتى إليها في مجلسها دون مشقة.

استطرد قائلًا:

- أود أن أشكرك على ما فعلتيه من أجلي، رفضك لما طلب منك من أجلي هو عمل عظيم وجميل لا أعلم كيف أرده.
- لا شكر على واجب.. لم أفعل شيئًا.. استرح
- هل زارك مجددًا؟

- لا.. لقد اختفى تمامًا فجأة دون أية مقدمات.
- كان يراقبني كل دقيقة، توصل إليكِ من خلال مراقبته لي، بالطبع وجد نفسه خاسرًا أمام امراة شريفة مثلك فتراجع، حمدًا لله أنه ذهب، كنت أعلم أن نيته غير سليمة بالمرة.

ثم اقترب منها قائلًا بهمس:

- روان، أنا أحمل بداخلي ما لا طاقة لي به، تزورني بعض من المشاعر تجاهك، أرتوي بمجرد الزيارة بما بالك إن سكنت واستوطنت. لم أشعر بمثيلتها سابقًا، في البداية كنت أنظر إليكِ بعين الشهوة وفقط، إلا أنني في كل مرة لا أرى سوى شهوتي تنعكس على جنس النساء بأكمله، إلا أنتِ، كل ما فعلتيه من أجلي، النظرة الأولى لو تتذكرين، على الرغم من حقارة فعلتي حينها إلا أنني شعرت باختلافكِ عن نساء العالمين.

صمت لوهلةٍ ثم أكمل:

- روان أنا أريدك

قالت بوجه عبوس:

- في منزلك؟

تدارك أمره سريعًا قائلًا:

- لا.. أريدكِ نصب العين والقلب.

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

- أنا هنا.. لي حبيب وسنتزوج قريبًا.. لكن إن احتجتني فأنا دائمًا في الخدمة.

استأذنت منه بحجة أن لديها زيارة لأحد أقاربها، تركته يجابه الشوق وحده، تؤمن أنه كلما قلت فرصه في النيل منها كلما توهجت نار الحب، الرجال عامة يجب التعامل معهم هكذا، ومراد حالة خاصة،يجب أن يشعر بأن الصيد ليس سهلًا أبدًا، بل عليه أن يتكبد من المشقة والصبر ما يجعله يدرك استحالة الأمر ومراره.

نهض هو الآخر متجهًا إلى مكتبه كي يكمل المذكرات التي لا تفارق مخيلته مهما داعبه طيف الحب وأضناه.

القاهرة 1966

شهور وأنا ألهث خلفها، أستبق خطواتها وأحيا على أمل أن يلتقط لنا المصور صورة فوتوغرافية لحفل الزفاف، ظلي الذي لم يفارقني أبدًا يفر مني إليها كلما رآها، أنا الآن أمتلك ما يكفيني بل و يزيد من المال، وفي يوم من الأيام وأنا في انتظارها كي تشرق شمس حياتي ليوم جديد، لم تأتِ، وأرسلت لي خطابًا مع صديقة لها، مددت يدي والتقطته في توتر، جلست على الرصيف الموازي لمكان انتظارها، كانت رائحتها تنبعث منه وكأنني أعانقها، ظللت أمسح عليه وكأنها بين يدي وسرعان ما إنتبهت لكونها مجرد ورقة، فتحته وبدأت قراءة ما دوّن في صدره، كتبت لي حينها:

- عزيزي.. الذي لا أتذكر اسمه خاصة وإن توقيع خطابك كان بإسم العاشق الولهان، صباح الخير أو مساء الخير حسب توقيت قراءتك لخطابي هذا، جُلّ تقديسي لفيضان المشاعر الذي فاحت رائحته من أجلي في بضعةِ سطورٍ من أجمل ما قرأت في حياتي مطلقًا، كنت أتمني أن يكون لي نصيب من حبك الصادق؛ لأني على يقين أن رجل مثلك يتمتع بذلك الحس المرهف تتمناه أي فتاة مهما كان مستواها الإجتماعي، يُكِنُ لها صدقًا وحنانًا واحترامًا.

جميعنا نحيا من أجل تلك الفرصة.. كلماتك أصابت وتر الصدق في القلب دون انحراف، كنت أحتسي قهوتي وأنا أقرأ، هل تعلم أنني لم أمد يدي لها طيلة فترة استمتاعي بما خطته يداك!!

ذلك الشيء يستحيل علىّ فعله، حينما أقرأ أو أدرس دائمًا ما يكون لرشفة فنجاني الأولوية قبل كل شيء، لم يأخذني منها كائن من كان، حروفك أخذت روحي من كل شيء حتى من مخدعها، تلك المشاعر المجردة النبيلة التي لا ينكرها إلا جاحد أو آثم.

عزيزي..

أنا لا أنكر تأثري بما كتبت، أردت فقط أن أرد لك بعضًا من صدقك كي لا أكتب مع من ينكرون الصواب خشية المواجهة، زرعتك حصدت صدقًا ويقينًا لكنني وللأسف قلبي لا أملكه، أنا

في علاقة حب مع شخص آخر، تربطنا علاقة أبدية صادقة، كان من اليسير ألا أرد وألا أصارح، إلا أنني فضلت المواجهة كي تمزق خيط التعلق بيدك أنت لا بيد الزمن المخادع، الزمن دائمًا ما يوهم البشر بقدرته على قطع الوصل وجلب النسيان، إلا أن في خباياه لا يزيد إلا تعلقًا وإصرارًا.

عزيزي..

أنا على البر الآخر من النهر والقارب مثقوب بفعل فاعل، فلا تحاول العبور سابحًا لكونه غير ممهد لذلك، هناك من ينتظرك فلا تبخل عليه بذلك القلب الصافي الذي رُزقت به.

عزيزي..

أتمنى لك حياة دافئة، وهنيئًا لفتاة أخرى تكون لها مَخدعًا وملاذًا.

تحياتي

نادية

ليتها ما كتبت.. ليتها ما كتبت.. ظللتُ أرددها وأنا أنتفض، عرق غزير يتصبب من جبهتي، شعرت بانكسار حاد يتخلل أوردتي، الحياة لا تريد أن تمنحني كل شيء، وكأنها تخبرني بأن منحة المال تكفي لمثلي وفقط، ولا سبيل لتحقيق باقي الأمنيات، لكن ذلك ليس عدلًا بالمرة، المال كان في الأصل من أجلها،

حتى أنني كنت أصلي من أجل أن يجمعني الله بها، كل شيء كنت أفعله كان من أجل نيل رضاها، ورضاها الآن في حوزة غيري، ذلك اللعين من يكون؟ ترى ما الفارق بيني وبينه؟

أُجزم بأني أحبها أكثر من أهل بيتها، كنت أستنشق مخلفات عطرها حينما تعبر بجوار عيني الراضخة لسطوة القلب وحكمه، أعلم أني تأخرت كثيرًا، كان من الممكن أن يكون السبق لي، لكن لا حب مع اليأس ولا يأس مع الحب، وضعت الخطاب في جيبي ونهضت، أريد أن يتوقف العالم الآن عن الصياح، أشعر بدوار طفيف، أود الحصول على قسطٍ من الراحة، وجدتها، أريد أن أحتسي بعضًا من الخمر لعله يجلي أصمد قليلًا، لم أجرب يومًا شعوره من قبل، يقولون أن له وقعًا مختلفًا حين يمتزج بالدم، لم أستطع تجربته مسبقًا، حيث كنت لا أملك شراء المياه الغازية، أما الآن فبإمكاني فعل الكثير، لكن هل سأذهب بمفردي؟ من سيدلني على مكان أفعل فيه ما يحلو لي؟

لا يوجد غيره.. خيرت اللواتي، رغم ما كان بيننا إلا أنني الآن مختلف. تركت العمل الذي كان ينازعني فيه، تركتني من أحببتها والتي كنت أخشى أن ينازعني فيها، وأيضًا أمتلك من المال ما يكفي، لكي لا أحقد على أي شخص مطلقًا، حتى وإن كان بائع الحظ.

يرتاد هو مثل تلك الأماكن كثيرًا، اتجهت إليه حيث موقع وقوفه، اقتربت منه وما إن رآني حتى شعرت بأنه تمتم بكلمات من المؤكد أنها تعني " ماذا يريد ذلك الأبله مجددًا "

قلت له في عجالة:

- أريد أن أشرب الخمر

ابتسم قائلًا:

- ومن قال لك أنني بائع الخمر.

نظرت إلى الأرض بعدما أحرجني بتلك الكلمات ثم قلت له في ثبات:

- اسمع يا خيرت.. أدرك جيدًا أنك لست بائعًا للخمر.. وأعلم أيضًا أنك لم تؤذني مطلقًا، لكن العيب كان من عندي أنا، اليوم أنا شخص آخر، أود منك أن تصحبني إلى حانة للخمر، أفرغ فيها المكبوت مني وأحرر ما كبل داخلي، هل ستساعدني يا صديقي؟

ليس لي علاقة بأحد غيرك كما أنني لست بالدراية الكافية بمثل تلك الأفعال. وافق على الفور، أصبح لطيفًا للغاية رغم الخلاف، وطلب مني الانتظار لمدة ساعة بجانبه وبعدها سنتجه سويًا إلى هناك.

اقتطعتُ ركنًا ليس بالبعيد عنه وجلست، مرت من أمامنا نادية في سيارتها.. يا الله كم لطلتها بهجة تثير كافة الغرائز

الذكورية الروحية منها والمادية، لم تنجرف كلماتي كي لا تهوى في الغور السحيق، إلتزمت الصمت وراقبتُ عينيها، سحرها لا يكمن في لونهما البني فحسب بل إنزوى بداخل سر قد حفر لنفسه خندقًا بهما، لا يدركه إلا من آمن بأنه لا مفر سوى أن تمد يدك لتلتقطه ليلتف حول عنقك ، إما أن يفتك بك شنقًا حينما تتركك وتمضي وإما أن يظل ساكنًا طيلة القرب.

www.maktabbah.blogspot.com

فعلت ذلك إلا أن السيارة قد تحركت بعد ثوانٍ، وها أنا أقف على حافة الرصيف الموازي لطلتها من النافذة، أراقبها وهي تتلاشى بعيدًا عن العين والقلب.مضت وتركت لي تِذكارًا منها ، ذلك السر حول رقبتي، وها أنا أنتظر مصيري بصدرٍ رحبٍ.

نظر إليها هو الآخر، لم أوبخه ولم ألتفت له، انتهى كل شيء، ليست لي، إذًا فلينظر من ينظر، لا يهمني أمرها من قريب ولا من بعيد.

وبمجرد أن ابتعدت أدار وجهه وأنا أجلس خلفه قائلًا لي:

- غريب.. لم تتعارك معي من أجلها.

إبتسمتُ في بلاهة ولم أرد، ثم نظرت أمامي مجددًا وكأن لسانه لم يتقلقل من الأساس، أنهى عمله من بيع ورق اليانصيب وطلب مني تبديل ملابسي البالية تلك بملابس أخرى تليق، كنت أتعجب هل للخمر ملابس رسمية؟

أخبرني بأنني لا بُد وأن أكون على مستوى الحضور، أنا أملك المال والآن حان وقت الإنفاق على مزاجي، إتجهت واخترت مما يختاره الأثرياء، بدلة رفيعة المستوى باهظة الثمن بمجرد ارتدائها تتحول من شخصية إلى أخرى كالسحر، وحينما تقف أمام المرآة ناظرًا إلى نفسك تشعر بأن كل من حولك صاروا كالأقزام. الكل خدم وأنت باشا، لا يسعهم سوى تقبيل يدك والتفوه بكلمات الاستحسان والاستجداء كي ينول كل منهم نظرة عطف وفقط.

إصطحبني إلى هناك حيث الجانب الموازي من الحياة، قصر مبهر من الخارج، قد يبدو للناظر كونه بنيان فخم ولا شيء أكثر من ذلك، أما من الداخل فهو قطعة من جهنم، كل ما تشتهي الأنفس، شابات وشبان يتهامسون بجوار بعضهما وفي أيديهم كؤوس الخمر، صوت قرع الكؤوس كان يهز المكان، وآخرون يجلسون على طاولة القمار، وآخرون يرقصون على نغمات موسيقى تجبر الجسد على الاهتزاز رغمًا عن مالكه.

انتابتني حالة مفعمة بفزع لم يراودني مُسبقًا، كيف سأتعايش وسط هؤلاء؟ أدركت الآن أنَني أنتمي للصنف الأدنى من البشر، بمجرد غلق الباب تحسب أنك سافرت على متن طائرة قطعت الأميال من أجل الوصول، أمسك خيرت بيدي جيدًا واتجهنا إلى صاحبة كل ذلك، فتاة في الثلاثينات من عمرها، بنت أحد الوزراء، ذلك القصر خصص لها من أجل تلك الحفلات اليومية، يجتمع

هنا صفوة المجتمع ونبلائه، اقتربت منها فمدت يدها، صافحتها، نغزني خيرت ليزحزحني قليلًا وانحنى هو كي يقبل يدها.

نظر ناحيتي وهو يحدثها قائلًا:

- صديقي نبيل الشيشيني رجل الأعمال المعروف.

قلت في نفسي:

- لا أدري معروف من أي اتجاه!!

الوحيدة التي سمعت عني هي أمي رحمها الله، انحنيت أنا الآخر وفعلت كما فعل تمامًا، الحق يقال كانت جميلة جدًا، جمالها الطاغي لا ينكر أبدًا، إلا أنه ليس مثيرًا، على الأقل بالنسبة لي. باغتتني بسؤالٍ كنت أخشاه، سألتني عن نشاطي الحالي، وجدت نفسي أرد برد يليق بذلك المكان قائلًا لها:

- جنيت ثروتي من لعب القمار.. أنا لا أخسر أبدًا.

زحزحني خيرت مرة أخرى من أمامها، همس في أذني:

- ماذا تفعل؟ هل لعبته مسبقًا؟

أجبته بأنني قد لعبته منذ زمن أنا وأصدقاء لي، كان اللعب على ملابسنا لكوننا لا نمتلك النقود، ذهبوا كلهم عرايا حينها، صدمني بأن اللعب هنا يختلف عن اللعب في الطرقات، لم يكمل تلك الجملة حتى انتبهنا لها تنادي باسمي من خلف طاولة القمار وتقول:

- الذي لا يخسر أبدًا أين أنت؟

رفعت يدي ببلاهة لم أعهدها في نفسي قائلا:

ـ أنا هنا..

بينما وضع خيرت يده على رأسه كتعبير مرادفًا لقلقه، جلست على الطاولة، علي يميني ويساري رجلان يبدو عليهم الهيئة الملكية، الوجه أبيض منتفخ مختلط بالحمرة، وأمامي هانم حسناء ثقيلة الوزن من فرط النعيم لا تنطفيء سيجارتها أبدًا. عرفتني بنفسها أنها سعاد هانم والدة ناهد، من ناهد تلك؟

أسئلة سخيفة تنطلق مني دون تفكير مسبق، أشارت إلى الفتاة التي عرفني عليها خيرت، نسى أن يخبرني باسمها، اعتذرت وتحججت بالنسيان كثيرًا، قامرت بمائة جنيه جملة واحدة، اندهش الجميع، عادة عندما يلعب غريب بينهم، يبدأ بمبلغ بسيط يسمح له بالاطلاع على طريقة لعبهم وخباياهم، أما أنا كنت أود أن أثبت لهم أنني في مصاف الأغنياء، حتى وإن خسرت بعضًا من المال سيكون الهدف المرجو قد تحقق ولا حاجة لي للمجيء إلى هنا مرة أخرى

إشباع نقص النفس لهو أمر مرهق وقد يكلف الكثير، لكنني سعيد بذلك لأقصى حد، بدأت اللعبة، لم أخشاهم، طالما لا تخشى الفقد فلن تخشى كائنًا من كان، تخيلتهم أصدقائي نلعب سويًا في الشارع الخلفي وتعاملت على هذا الأساس، جولة بعد جولة.. لا أصدق ما يجري، مرت قرابة الثلاث ساعات وأنا ألعب، تبدل الأشخاص وأنا في ثباتٍ، المائة جنيه أصبحوا ألفًا،

www.maktabbah.blogspot.com
في لحظة ما قررت التوقف، رفعت عيني فوجدت الجميع يلتف حول الطاولة في ترقبٍ مستمتعين بالمشاهدة وكأنها مباراة حارة لفريقهم المفضل، نهضت من مجلسي وجذبت خيرت من يده الذي كان مذهولًا، تتبعتنا ناهد إلى الخارج

وصافحتني قائلة:

- كنت على حق يا نبيل.. فعلًا الخسارة لا تعرف لك طريق، جميع من في الداخل منبهرين، على الرغم من أنهم قد فقدوا من أموالهم مبالغ لا بأس بها، إلا أن الانبهار دائمًا ما يتفوق على وجع الخسارة في المرة الأولى، خاصة مع من ظن أنه قد احترف الحياة، لذا أنصحك، من تنتصر عليه مرة لا تبارزه مرة أخرى، إبحث عن غيره، إجعل دائمًا المرة الأولى هي صك إعتمادك، لا مجال للمرة الثانية هنا يا عزيزي.

لم أفهم ما قيل بشكل قاطع، إلا أن المغزى العام لحديثها كان واضحًا، لا تدع أحد يحفظ طريقة لعبك، في رحم التكرار هزيمة لا ينكرها إلا قاصر، هي تحدثني باعتباري مقامر من الدرجة الأولى

أخبرتني بأنها تود رؤيتي مجددًا، أجزم بأنها كادت أن تلتهمني بعينها، غراب البين أصبح محبوبًا في الأوساط الراقية، كل ذلك وخيرت يصدق بالكاد ما يجري، بعدما ابتعدنا قليلًا نظر إليَ قائلًا:

- أين كنت تخبيء كل تلك المهارات؟

لن يفهم قطعًا إذا قلت له أن الحظ لا يأتي طواعية لك في مكانك، حظك ينتظرك في جانب آخر يبعد كل البعد، ولا وسيلة آمنة للوصول إليه إلا المجازفة، أنا جازفت وهرولت تجاهه، لو كنت استسلمت لظل مكانه مهما مر الزمن، حتى يشيخ ويموت وهو في انتظاري.

آثرت الصمت؛ ففهم من سكوتي أنني لا أود المصارحة، يدرك الآن تمامًا أنه لن يكون صديقي مهما حدث، لا أخفيكم سرًا لازلت أحقد عليه، تصالحه مع نفسه يثير نقصي كي ينتفض، يعمل في صمت ولا يهمه حديث الناس وألسنتهم، حتى حضوره وسط هؤلاء، يعلم أنه أقل منهم ولا يبالي، غريب أمره، أنا الذي أود أن أسأل:

- كيف تعرفت على ذلك الصنف من علية القوم؟

تفوهت بالسؤال؛ فأجابني إجابة مقتضبة:

- الوزير ربح في اليانصيب قبل توليه الوزارة ومنذ ذلك الحين وهو يستبشر بمرافقتي

- محظوظ أنت يا خيرت.

- للمرة الأولى التي أقول له فيها ذلك

صدمني بِرَده حينما قال:

- أعرف انك ذلك هو سر البغض، من المفترض تلاشيه الآن ولو قليلًا بعدما أصبحت من ذوي المال

قاطعته قائلا:

- لماذا لم تبلغ عني البوليس؟

- لست حاكمًا ولا قاضيًا، ليس لي دخل بما تفعله، إن اكتشفوها يومًا فلا بأس ولكن دون تدخل مني، وإن لم يكتشفوها فلا بأس أيضًا. كل بشر يحمل فوق رأسه ما يريد حتى وإن كان ذا ضرر مهيب.

انزعجت من كلماته تلك، هدوءه دائمًا سر اتزانه، ليس في إمكانك أبدًا أن تعلم فيما يفكر، ولا يمكنك أن تدرك ما قد يقبل عليه، كل شيء يحدث سِرًا، افترقنا في الطرقات، له طريقه ولي طريق، إتجهتُ إلى منزلي وأنا في قمة فرحي، ربحت اليوم ما لم أكن أتوقعه، بحر المال يحب الزيادة وأنا قد قررت ألا أكتفي أبدًا، في الغد سأشتري سيارة، لست أقل من أحدٍ، والمال خلق كي يمتع صاحبه لا كي يتعسه، المال يشتري كل شيء، كل شيء.

- كم من المال تريد كي تتركها

قالها مراد لعادل بعدما اتجه إلى روان فوجدها برفقته في نزهة لا تتبدل مكانها سوى تلك ألحديقة، بمجرد أن رأته أشارت إلى عادل قائلة:

- عادل خطيبي

ودت أن تخبره بماهية ذلك الشخص حتى لا يتفوه بحديث غث رث يضرها أكثر مما ينفعها، ورغم كل ذلك قرر أن يعرض عليه ذلك العرض المباشر، يوقن بأن روان تتمنى أن تتجنب الفقر وألمه، من هيئته يبدو عليه أن الفقر رفيقه البار، بالطبع إن عرض عليها الزواج ستتحجج بذلك المسكين، عقبة هينة يمكن أن تزاح بالمال، الفقراء لا يمكنهم الصمود أمام رياح الثروة طويلًا، ستأتي لحظة انهيار لا محالة.

إتسعت عيناه من جراء الوقع الثقيل لتلك الجملة القذرة، تلعثم قائلًا:

- تقصد من؟

- روان.. هل هناك غيرها؟

- مليوني جنيه

قالها عادل بعد أن اقترب منه بضع خطوات.

إبتسم مراد لكونه قد وافق على المبدأ وإنحصر الحوار في الكم دون الكيف.

أردف عادل قائلًا:

- مليوني جنيه بالإضافة إلى روحك، تراجع مراد للخلف، اقترب منه عادل، لكمه لكمة قوية طرحته أرضًا، جثم على صدره بركبتيه، يتلقى مراد ضرباته محاولًا تفاديها والدفاع عن نفسه بكل ما أوتي من قوة، دفعه من أمامه

في محاولة للتخلص منه حتى سقط بعيدًا عنه، نهض واتجه ناحيته مرة أخرى وقد غضب غضبًا شديدًا

- منحط وضيع، إنك لا تعرف للكرامة مخرجًا ولا للشرف، إغربْ عن وجهي حالًا وإلا قتلتك.

فَرَّ مراد بسيارته مسرعًا، رغم فقره وجسده الهزيل إلا أنه في ذلك الموقف قد اِمتلك قوة تفوق قدرته، تولدت من شرارة التمسك، فالفقراء لا يعرفون أبدًا بيع الشرف مهما كانت المغريات، في أمَسِ الحاجة للمال، إلا أنهم يؤمنون بأن ضحكة طفولية مع الأحباب في لحظة مختلسة من عمر الزمن كفيل بأن يجعل الصبر على الحياة مستطاع.

اِقتربت منه روان كي تطمئن عليه، سألها قائلًا في غضبٍ:

- من ذلك الوغد؟

- إنه شخص يتتبعني في كل مكان، يسمعني كلمات الحب والهيام، وفي كل مرة أخبره بأنني في علاقة لكنه لا يرتجع أبدًا.

تركها وانصرف من فرط ما يشعر به، لم يتحدث مطلقًا ولم يتفوه بأي شيء، ساد صمته قبل المغادرة، تباع حبيبته وتشترى أمامه لكونه عاجزًا عن أن يشعرها بدفء المال وأمنه، بينما اختلط حزنها الشديد على ما جري ببعض من السعادة التي تخللتها على استحياء، تيقنت بأن مراد لا يمتلك ثمة وسيلة كي يحصل عليها

سوى المال، حين أدرك أنه لم يستطع إغرائها بغير ذلك، ولن تجدي معها ألاعيبه الحمقاء، قرر أن يشتريها، الأمر أصبح قريبًا قرب البصر لمرماه، على الجانب الآخر يقود مراد سيارته وقد ضاق به ذرعًا و ضاقت به السبل، يتعجب من تمثيل دور الشرف في عرض مسرحي سخيف وفق ظنه، ظن أن كل شيء مكتوب عليه للبيع، طالما يملك المال الوفير إذن لا يعصى عليه شيء، وما فائدة المال إذًا طالما هناك أشياء لا تباع، سر وجود الحياة واستمراريتها يكمن في ذلك السعي وراء أهداف لا تُشترى؛ فالحياة ما هي إلا مسافة ما بين نقطتين، الأولى هى البداية والثانية هي الهدف، طالما لا نملك ما يجعلنا نقفز من نقطة الثبات إلى نقطة الوصول، حينها تبدأ الحياة، طريق سفر سُيقطع لا محالة، ثوابت الله في أرضه، إما الوصول وإما التعثر.

أخذ يصبر نفسه بألا ييأس، يزول رويدًا رويدًا عتاب ضميره القاسي من جراء ما فعله مع أبوه، ينشغل تمامًا بروان وقصتها، فأبوه لم يكن حامي الحق ولا عصامي شريف، كل ما حدث له كان نتيجة منطقية حتمية لكل ما ارتكبه، يدرك أن في بقية المذكرات أشياء ستمحي نهائيًا أي غصة في وجدانه، بينما تجلس روان في السطح تصارع ضميرها الذي دائمًا ما يؤلمها كإنذار شديد اللهجة بأن ما هي مقبلة عليه نهايته ليست بالسعيدة، شعرت بيد وضعت على كتفها وصوت يحدثها قائلًا:

- الحياة لم تكن عادلة أبدًا، ومنطقية الأمور دائمًا ما تنبع من صراع داخلي وفق التكوين النفسي، الصواب والخطأ نسبي.

اِلتفتت فوجدته بائع الحظ يزورها بعد فترة غياب طالت، تلك هي المرة الأولى التي تشعر في زيارته ببعض من الاطمئنان، هو من أرشدها لطريق لا تعرف كيف تسلكه، يمتلك مفاتيح الأبواب المغلقة.

اقتربنا كثيرًا، وأنا أثق في قدرتك وفي تنفيذك للخطة على أكمل وجه، قالها وقد جلس بجوارها على السطح واستطرد قائلًا:

- مراد الآن يثق بك ثقة عمياء، بعد تحذيرك له وفق اتفاقنا لن يشك فيما قلتيه مطلقًا، فتاة تركت كل تلك الأموال وحذرته، بالطبع أصبح حديثك بالنسبة له مقدسًا لا تشكيك فيه ولا تأويل.

الطريق الآن مفتوح على مصراعيه لاستكمال الخطة، قلب مراد يعني ثروته، ولا تخافي ستعودين لعادل مرة أخرى، ما تفعلينه ليس بخيانة، هو تأمين للمستقبل، روان، أنا والعدم سواء في حياة مراد، لن أظهر له مجددًا على الأقل في تلك الفترة، كل ما فعلناه كان من أجل الثقة، وها هي قد خُلقت وباتت قوية الصنع ولن يحطمها شيء مهما كانت صلابته.

قالت روان بقلق:

- لقد عرض على عادل أن يشتريني منه مقابل المال، هل كنت تعلم أنه سيفعل ذلك؟

- بالطبع لا، لكني كنت أتوقع جيدًا إنه سيتصرف بعيدًا عني تصرفًا أهوجًا لكونه قد تيقن الآن أنني ضد مصلحته بعد تحذيرك له.

أخبرته روان بأنها حفظت كل تفاصيل خطته عن ظهر قلب، شكرته على مساعدته لها، وإن كانت لا تقتنع بذلك مجردًا عن أي نوايا أخرى، ترجته أن يذهب الآن لكون عادل على وشك المجيء، وإن رآه هنا الآن سيقتله كأهون رد فعل يمكن أن يقترفه. ضحك بسخرية، لاحظت أنه لا يمسك بالسيجار كما اعتادت منه، سألته في حرج:

- أين سيجارك المشتعل دومًا؟

قال بابتسامة:

- عادة تخلصت منها.

- بالفعل عادة سيئة

- لم أقل سيئة، كونها عادة في حد ذاتها كفيل بوجوب التخلص والترك، تعلمت ألا أكون عبد ا لشيء، الطعام، الشراب، الجنس.

ثم صمت قليلًا وقال:

- والحب

استعبادك ينذر بمراهقة متأخرة، لا تدعي شيئًا يتملك منكِ، الإنسان خُلِقَ كاملًا. والنقص الكامن في أنفسنا نحن من اقتطعناه بأيدينا.

القاهرة 1968

أجلس على طاولة للقمار في إحدى السهرات الخاصة، احترفت اللعبة، في كل مرة أختار طاولة جديدة بعناية وحرص، أفوز ولا أعرف كيف وأقرر ألا أعود إليها مجددًا، نصيحتها كانت دائمًا تتردد في أذني، يمكن أن يكون ذلك سر النجاح، أغدق العيش، ينهال عليَ المال من حيث لا أدري، السيارة باتت أكثر من واحدة، والملابس من مختلف الأشكال والماركات، والنساء من مختلف الأعمار والعائلات يتهافتون على الجلوس بجواري، أنا لست بائعًا للحظ مثله، أنا الحظ ذاته، حاد نظري إبان اللعب فلمحتها تقترب، ناهد، مرت سنوات و لم أرها، كانت المرة الأولى والأخيرة، حينما اصطحبني خيرت إلى هناك فتح لي باب رزق من وسع، بمجرد أن رأيتها اتجهت كي أكون في استقبالها، بالطبع ستتذكرني، مثلي لا ينسى أبدًا، انحنيت كما الأثرياء كي أقبل يدها، علامة الترحيب بالفاتنات، ابتسمت لي وأخبرتني بأنها كانت تتوق لرؤيتي، أخبرتني بأنها قد طلبت من خيرت عدد لا

بأس به من المرات أن تراني، كان دائمًا يخبرها بأنه لا يعرف لي طريق جُرة، حقيقة لقد ابتعدت عنه في تلك الفترة، لكن السبب الرئيسي ليس عدم معرفته بمكاني وإنما عدم رغبته في أن يصبح لي شأن مع تلك العائلة، كان على يقين بأن تلك الفتاة تستلطفني، لاحظ ذلك حينما كنا سويًا، أنجزتُ مهمتي معهم وربحت ما قُسِمَ لي ثم عدت إليها مرة أخرى. كانت تشرب كأسًا من الخمر بجوار أحدهم، بمجرد رؤيتي استأذنت منه واتجهت نحوي، بعد تبادل عبارات الاطمئنان على الحال والمال أخبرتني بأنها تشعر ببعض من الضيق، مللتُ تلك الحفلات والسهرات، روتينية الأمر محى أي لذة من شأنها جلب السعادة للنفس، الهدف الأصيل لكل ما يجري هنا، دونه يصبح الأمر أشبه بالوقوف في طابور الجمعية الاستهلاكية لشراء الدجاج، نصحتها بأن تبتعد لفترة عن تلك الأجواء حتى تولد الرغبة مرة أخرى من رحم الاشتياق، البعيد دائمًا مرغوب خاصة وإن كان ممنوعًا، تذكرتُ ما منع عني في تلك اللحظة، نادية، تلك الفتاة التي قرر القلب بعدها العزوف التام عن الحب ومسالكه، صابه الخواء اللعين بإرادته الحرة، الحب مصير لا بُد من خوضه، كنت أود أن تكون هي رحلتي الدنيوية، أعددتُ العدة وكلي يقين بأنها لي مهما طال الزمن، تملكني الصمت تمام وانفصلت عن واقعي، تنتظرني المسكينة التي تجلس أمامي كي أتحدث، تنحنحت ثم قلت:

- آسف، أشعر بصداع شديد.

أكدت لي أن ذلك نتيجة الإكثار من شرب الخمر، لا تعرف أنني لم أشربه سوى مرة، لم أعترض على ما قالت بل أكدت عليه، ليس ما تفترف هو المهم، الأهم الهيئة التي يرونك عليها، الناس تحب المظاهر، يرونك دائمًا وفق ما يريدون طالما يريدونك، على حسب الهوى تتحدد الرؤية، هي تراني لا مثيل لي، فارس أحلامها، والأخرى لم تبتغي حبي فلم ترى شيئًا يذكر.

طلبت مني الحضور لحفلة في الغد بقصر العائلة، وافقت على الفور، خاصة أنها قد أكدت أن والدها هو صاحب الدعوة لتلك الحفلة على شرف تجديد الثقة له في منصبه، الثروة لا تكفي وحدها، التقرب من السلطة ضروريًا من أجل حمايتها والحفاظ عليها، في مساء الغد ارتديت أفضل ما أمتلك من كل شيء، وبسيارتي الفارهة اتجهت إلى هناك، دلفت إلى القصر، استقبلتني بحفاوة شديدة وقبلتني، اصطحبتني من يدي، نفس الوجوه لا تتبدل، زاد عليهم بعض من أصحاب النفوذ، كانت تشير كل برهة إلى أحدهم وتخبرني بمنصبه المرموق، ماذا تفعل يا صعلوك وسط الملوك، لست صعلوكا، لست أقل منهم في شيء، الحسب والنسب والأصول الباشاوية هو الفارق، لكن الثروة هي الأهم، دقائق وظهر رأفت باشا عريس الحفل، جذبتني من يدي ووقفنا في مواجهته مباشرة، أخبرته قائلة:

- أبي، أود أن أعرفك على نبيل الشيشيني، رجل أعمال وأذكى من أنجبت الكرة الأرضية،

ابتسمت ابتسامة الخجل، مد يده ليصافحني قائلًا:

- طالما قالت عنك ذلك فهي صادقة، ابنتي لها نظرة لا تخيب أبدًا.

مددت يدي قائلًا:

- شرف لي يا باشا أن يتحسس جسدي ملمس سيادتكم

- لا مانع من بعض النفاق، القليل منه يوفي بالغرض.

قال وهو يمزح:

- أُلغيت الألقاب منذ فترة.

قلت في سرعة بديهة:

- أُلغيت إداريًا أما الباشا سيظل باشا مهما صدر من فرمانات.

بدت على ملامحه علامات الرضا، أثق في كوني قد نلت رضاه. يتبقى بعض الخطوات البسيطة، تركنا واتجه إلى الحضور كي يحتفي بهم وظلت هي بجواري لم تتركني لحظة، أخبرتني أن والدها سيلعب بعد قليل وطلب أن ألعب معه بعدما قصت له براعتي، لا أكذب إن قلت أنني قد أصابني بعضًا من التوتر، مبارزة السلطة تعني التهلكة، لا مجال للفوز هنا، الفوز يعني نهاية حتمية لا ريب فيها، تلك هي السُنة، اتجه إلى الطاولة واتجهت بعدهم، أصريت على أن ينتظروني ولو لدقيقة، حتى يتهامسوا فيما بينهم لمن ذلك المقعد الفارغ، اتجهت بعد مدة وجيزة، قررت أن

أخسر، إن ربحت سيكون حسابي عسيرًا، كيف أتجرأ أن أربحه، الكل هنا يسير بنفس الطريقة، يخسرون عمدًا إن قرر اللعب نادرا، كيف يخسر صاحب السلطة والنفوذ، يدركون أن العواقب وخيمة إن حدث ذلك، خسرت بالفعل، طريقة لعبي تعمدت أن تظهر بأنها مهزوزة، تعمدت أن يلاحظ أنني أقصد ذلك، تلك هي فروض الولاء، العبرة ليست كي يربح المال، هو يمتلك نصف الدولة على الأرجح، العبرة في تعقيدات نفسه التي أقنعته بأنه لا يقهر، لا يخسر ذو سلطان أبدًا، تركنا وقد سرته فعلتي، لقد نجحت في إيصال ما أريد، ربت على كتفي وهو يعبر من خلفي دون أن يقول شيئًا، دقائق ودخل خيرت إلى الحفل، كنت أنتظره، أعلم أنه سيأتي، لن يفوت فرصة كهذه، مظهره اليوم يبدو أدنى مرتبة مني، أتفوق عليه في كل شيء، جلس على الطاولة أمامي وطلب مني ألا أغادر كي يبدأ معي جولة جديدة، لا أعلم سر إصراره على ذلك، طاوعته في الأمر وبدأ الصراع، وصفته بذلك لأنني قد رأيت في عينه نظرة تحدي لا أعرف مبرر لها سوى الغيرة، يريد أن ينتصر ويخبرهم بأنني ابن للصدفة البحتة، عينه يملؤها شر لم أر مثيل له في حياتي، الغريق يتشبث بمن في صحبته كي ينجو حتى و لو على حساب حياته دون أن يفرق معه ماهيته، أخوه، أبوه، صديقه، في الغرق لا يراه سوى جسم صلب يمكنه التشبث به وفقط، الجولات في احتدام، حتى جاءت القاضية، ربحت، ارتفع بنظره إلى أعلى حيث يقف السيد الوزير، نظرة خذلان وانكسار، تركنا

ومضى إلى الخارج، جذبتني ناهد من يدي إلى أبيها، نظرت له ولازال في الأعلى قائلة:

- ألم أقل لك يا أبي ألا تصدق حديث خيرت ـ إنه ماهر بالفعل وذكي ومحظوظ، كل ما قاله لك خيرت محض كذب وافتراء.

هز رأسه إيماءًا منه بالتصديق، ثم همست في أذني:

- خيرت ادعى لوالدي أنك مجرد أفاق فاشل، وذلك من كثرة حديثي عنك منذ أن رأيتك، حينها شعر بأنك ستحل محله، فطلب والدي من خيرت أن يثبت للجميع صدق حديثه، وأكد له أنك إن فزت عليه في اللعب فلن يكون له مكان بيننا بعد اليوم.

قاطعتها ـ لكون كل ذلك قد توقعته بصورة أو بأخرى ـ قائلًا:

- و ما هي وظيفته هنا من الأساس؟

- سأخبرك.. خيرت كان نيمة الحظ الخاصة بأبي، يخشى أبي دائمًا من البنايات التي تعلوه وهو أرضًا، يشعر بأنه سيموت نتيجة سقوط جسم صلب من أعلى بناية من البنايات، تصطدم برأسه مباشرة فيلقى حتفه في الحال، إن ترجل أحيانًا ينظر إلى الأعلى كل دقيقة خشية أن يحدث ما لا يحمد عقباه؛ فاعتاد على أن يكون له مرافقًا يجلب الحظ ويدفع النحس، معتقدات شأنها

شأن الخرزة الزرقاء والخمسة وخميسة وغيرها، قبل توليه الوزارة بفترة اشترى من خيرت ورقة يانصيب، من عادته ألا يشتري مثل ذلك، لكن بصدفة ما وبكلامه المنمق أقنعه بأنه لن يخسر شيئًا، وبالفعل ربح أبي البريمو وبعدها مباشرة تولى الوزارة، كل تلك العلامات أرشدته بأن خيرت محظوظ ويوزع طاقة الحظ على كل من حوله، فاتخذه رفيقًا له.

سرحت قليلًا في أمر ذلك الوزير، هو لا يخشى الموت، هو يخشى فقد السلطة، مهما علا شأنه و انتفخت نفسه هو حفنة تراب من أرض يخطو عليها بحذائه، مهما تدرج في هرم السلطة سيظل بشريًا ذا جسد محدود القدرات، بصره محدود وليس بإمكانه التحليق، يستطيع أن يهزم كل شيء إلا ما يعلوه، ولا يعلوه شيئًا سوى البنايات، يهاب منها كما يهاب المذنب جلاده.

تداركت صمتي سريعًا وقلت:

- وما الفائدة التي عادت على خيرت من جراء ذلك؟

أولها بالتأكيد مرافقة السلطة وثانيها وأخفضت صوتها تمامًا:

- أبي كان يفرض على كل رابح اشترى من خيرت أن يدفع الربع لخيرت جبريًا

- فهمت كل شيء الآن.

حين شعر أبي أن خيرت يغار منك تساءل كيف يغار الحظ من شيء!! وحينما عزز ذلك بمحاولة تشويه صورتك تيقن أنه أصبح باليًا ضعيفًا لا فائدة منه ويتخذ أساليب النساء كي ينتصر.

ـ لماذا تفعلين معي كل ذلك؟

قلتها وأنا أقصدها تمامًا، وددت أن تصارحني هى مباشرة، أو على الأقل أن تُلمح لي بما تحمله في صدرها تجاهي، أن تعترف الفتاة أو تلمح في البداية يجعل من الأمر سهلًا في كل تفاصيله القادمة. لكونها قد ارتكبت ما لا تقبله السجية النسوية ولا الناموس الأنثوي، نتيجة فرط الإعجاب وشدة الحاجة وخشية ضياع من تحب، فتبادره هي حتى تغلق عليه كل سبل التحجج بعدم العلم، في الحب الفرص الضائعة لا مجال لها أبدًا في تخطيط المرأة، إذا خلقت فرصة فتأكد أن استثمارها سيخلق نتيجة ايجابية حتمية، الأمر معقد جدًا

أجابت دون تردد:

ـ معجبة بك منذ أن رأيتك في المرة الأولى.

الفصل الخامس

أغلق مراد تلك المذكرات التي تأخذ من روحه يوميًا جزءًا يذهب مع الريح دون عودة، يتآكل كالبنيان الهش الذي لا يقوى على الصمود أمام قرار إزالة لا يُلتمس إعادة النظر فيه، صدمة مروعة، يخشى من الصفحات القادمة أن تصدمه أكثر في كل من حوله، الأمر مريب حقًا، كل تلك الأموال الموروثة مصدرها القمار وغيره، طرق غير مشروعة لجمع الثروة، لا يبالي بذلك مطلقًا، طالما ستجلب له النعيم لن ينظر خلفه، لكن أين النعيم حتى الآن؟

منذ أن حصل على تلك الأموال وهو في دوامة لا تنتهي أبدًا، حصل على المال بكل سهولة، أما الحب فلم يستطع النيل منه، الساعة الثامنة صباحًا، بدل ملابسه كي يذهب لعمله الذي أهمله كثيرًا، نتيجة انشغاله التام بما يدور حوله، يخشى نظرات المقربين بعدما حدث لوالده رجل الأعمال المعروف، الناس تهتم

دائمًا بالفضائح خاصة في الغرف المغلقة، حمل أوراقه واتجه إلى خارج منزله، ركب سيارته وما همّ على التحرك حتى وجد الباب المجاور له يُفتح، ذلك الباب أصبح مصدرا للقلق، فوجئ بروان تدخل إلى السيارة، نظرت أمامها قائلة:

- تحرك

لم يفهم ما يجري، ظل يتطلع إلى ملامحها الحادة، يسير بطول الطريق دون نقطة وصول محددة، وما أن نطق حتى بادرته بتشغيل جهاز الكاسيت، رفعت درجة الصوت لأعلى درجة ممكنة، يصدح بموسيقى فرنسية هادئة، استرخت على المقعد تمامًا ثم أغمضت عينيها و قالت:

- لازلت تريدني؟

لم يسمع لكون صوت الموسيقى أعلى منها، مد يده كي يخفضه قليلًا، أمسكت بيده كي تمنعه، قائلة مرة أخرى بصوتٍ أعلى:

- لازلت تريدني؟

اجتاحته حالة من الاستغراب لكنها لم تمكث طويلًا معه، صمت قليلًا كي يرتب إجابة مقنعه ينطقها لعلها تختبره، مدت يدها وأطفأت الكاسيت تمامًا ثم قالت:

- أعلم أنك تظن أنني هنا الآن كي أوبخك على ما جرى منك مع عادل، لكنني اليوم قد أتيت كي أتمم الصفقة.

- صفقة؟ هل وافق عادل؟

- غريب الأطوار أنت، الأصل هنا يحدثك، ما دخلك وعادل؟

- هل تحبينني أم مجرد احتياج للمال؟ إن كنتِ في حاجة فخذي ما شئتِ.. لكني أريد قلبكِ.

- إن كنت في حاجة للمال لكنت وافقت بائع الحظ واستوليت على الكثير مما تملك، إلا أنني لا أسرق أبدًا، قلبي يخبرني بأنك الشخص المناسب لي

جذبها من رقبتها إلى صدره، يستنشق من شعرها عبير لا يقاوم، كان يشمه عن بعد، قطع كل تلك المسافة من وقته من أجل أن يصل به المطاف إلى ذلك، تلك الفعلة تشعره بأنه قد تملكها، لكل نفس فعلة ترضيها، أبعدته بيدها قليلًا ثم قالت:

- المهر.. ذلك المقهى الذي كنت أعمل فيه، اشتريه لي

- فقط؟

- فقط

- غدًا في المساء ستصبحين المالكة، الآمرة والناهية.

نظر إليها نظرة تجمع الشمل وتمحو أي إثم قد خلقت الحياة على أنقاضه، عباراته كلها في تلك الآونة مشحونة بالرومانسية، يخبرها كم سيتغير من أجلها، كم يستعد لإنفاق الغالي والنفيس من أجل الوقوف في حرم حسنها دون مزاحمة، كم كانت حلم صعب

المنال، إلا أنها لم تشاركه تلك اللحظة، لا تسمعه من الأساس، سافرت إليه، إلى حبيبها، الفقير النحيف، لن تغدر به لكنها تقنع نفسها أنها في مهمة رسمية كي تنتشله من فقره الذي ينهش في جسده حيًا، وسرعان ما ستمر الساعات وستعود إليه، حتمًا ستعود، لكن تعود من أجل ماذا؟ حُرم عليها الزواج، مُنعت عنه فرضًا، واليوم يرتمي تحت قدميها المال والحب، الحب سيؤذيها والمال سيضنيها والحياة برمتها ستعتزلها عاجلًا أم آجلًا، هزها برفق بعد أن نادى عليها كثيرًا وهي في سكرتها، انتبهت له قائلة:

- معذرة.. من فضلك وصلني إلى بيتي، الساعة قاربت على التاسعة وعادل على وشك الاستيقاظ.

- لازلتي تخشين منه، لما؟

- أنا لا أخشى أحدًا لكن يجب أن نؤخذ الأمور رويدًا رويدًا.

- وعقد زواجنا، متى؟

- قريبًا، قريبًا جدًا

- تلك السيارة تزعجني كثيرًا أود أن أقذف بها في النيل

قالها بائع الحظ وهو يقف أمام ورشة عادل التي يعمل بها، فتح زجاج سيارته ونطق بتلك الكلمات، رغبة منه في جذب

انتباهه. اتجه عادل إليه وبدأ في فحص السيارة من جميع الجوانب ثم قال:

- السيارة متهالكة جدًا، أظن أنك كنت خارج البلاد وتركتها هنا
- بالفعل لم أكن هنا، بمجرد أن خرجت من السجن ركضت إليها لكوني قد افتقدتها.
- السجن؟ يبدو من هيئتك أنك من عائلة محترمة.
- السجن للمحترمين غالبًا، كانت قضية شرف، قتلت شخصًا أغوى حبيبتي.

بدا على عادل التركيز الجاد في حديثه ثم قال في دهشة:

- أغواها كيف؟

كان يحسب أن بوسعه شرائها ومالت له هي الأخرى بنهاية المطاف، الفقر والحاجة ثغرتان يقتحم منهما كل ما هو إثم مبين. أرجوك لا أريد أن أتذكر تلك الأحداث.

قالها بائع الحظ وهو يسند رأسه على سقف السيارة وينظر إليه بطرف عينه ليلاحظ تبدل تعبيرات الوجه إلى القلق والتوتر، يتذكر عادل ذلك الوغد الذي طلب منه شراء من أحبها، وكأن ذلك الشخص الماثل أمامه مرسل إليه خصيصًا كعلامة تذكره بأن الشرف لا استهتار فيه ولا سكون.

انصرف بائع الحظ بينما أغلق عادل الورشة وركض تجاه المنزل، خُيل له بأنه سيقتحم غرفتها ليجدها بين أحضانه، كم تحمل من أجلها والنار تسكن وجدانه، تكون بجواره ولا يستطيع لمسها، يصمت ويتحمل ويخلق أعذارًا لا حصر لها، في النهاية يمكن أن تكون خائنة، يُشبع رغبتها غريب لا ناقة له ولا جمل، تزداد سرعته بينما تزداد الأحداث في المرور على مخيلته كسكين بارد لا ينهي مهمته سريعًا، بل يؤلم في كل مرة يعبر على رقبته ويفشل، مرات لا حصر لها من الفشل، في كل مرةٍ ألم لا يطاق، النفس تموت قبل الجسد حينها، وما أدراك أن تموت نفس وجسدها بين الأحياء تسير، وصل إلى هناك، ضرب الباب بقدمه، دخل عليها فوجدها مستلقية على السرير، انفزعت واتجهت نحوه كي تحتمي فيه، ظل يجول بنظره في أرجاء الغرفة وقد لاهث الأنفاس، بدأ يستريح الخاطر قليلًا ثم قال:

- كنتِ مع من؟
- متى؟
- منذ لحظات
- أنا في غرفتي منذ الصباح لم أخرج ولم يزرني أحد كالمعتاد في حياتي.
- شعرت بأنك في خطر، لا أعلم لماذا؟
- تحبني إلى ذلك الحد؟

الحب كلمة سهلة التكوين صعبة التلفظ، كحجر ثقيل يطبق على صدري، مسؤولياتها أقوى من تحدي جيش مسلح كامل العدد، وأنا لا قوة تحميني ولا سلاح ينصفني، سوى رمح وحيد، إن أصاب بالضربة الأولى لن ينتظرني أحد كي أصيب بالثانية، رغم كل ذلك، تلفظت بها مغوارًا حتى وإن قُتلت، فلا حياة بوصمة عار تلاحقني، أحمل رمحي وأنتظر، يكفي أن أصيب أحدهم فقط ولو لمرة قبل الموت، ليقولوا تحداهم ولم يخش أحد منهم.

دائمًا ما تهوى ذلك الضعف الذي ينسال منه حينما يكون بين يديها، كمياه وضعت في مصفاة، رغم قوته المستمدة من قلب يخشى على ما يملكه أكثر من خشيته على حياته التي لا يقدرها حق قدرها، ما أجمل أن ترى القوي ينهار في حضرتك، البشر خلقوا ضعفاء، آدم وسوس له الشيطان و أطاعه حين ضعفت نفسه، قابيل قتل أخاه عن عمد حين ضعفت نفسه، البشرية خلقت في لحظاتها الأولى من نطفة لفطرة هشة، منا من استمسك بهشاشته وسمح للضعف أن يستوطن ركنًا أصيلًا بالروح، ومنا من ارتدى رداء الصلابة المُنْهِك، ورغم ذلك دائمًا ما نحتاج إلى مأوى نخلع على بابه ذلك الرداء، نتعرى حتى نثير شفقة الحياة كي ترحم، على عتبتها يخلعه، في عينيها يستريح وفي صدرها يبكي، كي يكمل بعدها محاربة طواحين الهواء، كما تعود.

كما تعود مراد بعد أن يبدل ملابسه يستلقى على سريره الفاخر ليستمتع بما يملكه قدر المستطاع، في الليل سيذهب كي يمنح من أحبها عربون المحبة، توسوس له يداه أن يكمل المذكرات، لم يلبث حتى نهض وجذبها من على مكتبه وفتحها وبدأ في الاستكمال.

القاهرة 1969

عشقتني، بِتُ سيدها الذي لا طاعة لغيره، لم أصبح تيمة الحظ الخاصة بالوزير وفقط بل للعائلة بأكملها، أسير بجواره دائمًا، أحضر معه اجتماعاته، أُرتب له مواعيده، لكنه يخيفني كلما أسير بجواره وهو يراقب ما يعلوه خشية الموت، نلعب القمار سويًا كل فترة وأخسر كما تعودت، سنة كاملة على ذلك الحال، وفي إحدى الليالي طلبت ناهد مني الزواج، جرأة كبيرة وشجاعة منها أن تبادر هي، لا مانع عندي بالطبع، ذلك سيعزز موقفي ويثري ما خططت له، أخبرتها بأنني أتمنى ذلك، الزواج من امرأة جميلة مثلها هدية من الله. انتابتها السعادة وأخذت تقفز فرحًا، لم تُكذبْ خبرًا وأخبرت والدها على الفور والذي لم يكذب خبرًا هو الآخر وانهال عليّ بأفظع ألفاظ التوبيخ والسب بعد أن طلبني في مكتبه، وما أن أغلقت الباب حتى قال:

- هل صدقت نفسك؟ تريد الزواج من ابنتي أنا؟

إستجمعت شجاعتي وقلت:

- أنا لم أطلبْ هي من طلبت.

إحمر وجهه من الغيظ، أعلم أنني أقترب لخط لا يجوز الاقتراب منه عند هؤلاء، قال بنبرة عنيفة:

- أنت مجرد خادم، لا فائدة حقيقية منك، عينتك معي من أجل ابنتي، كنت أظن أنها صديقة لك أو ما شابه، أما أن يصل الأمر إلى زواج فهذا درب من الخبل، ماذا سيحدث لي إن تركتني؟

- لن يحدث شيء، أنت واهم، أنا لا أخشى شيئًا، إغربْ عن وجهي، لا أود رؤيتك مجددًا.

www.maktabbah.blogspot.com

كان لا بُد أن أكتفي بالمال وفقط، لماذا دخلت بين دهاليز هؤلاء؟ الحياة كانت ستبدو بصورة أفضل، لا عراك فيها ولا صعوبات، راودتني فكرة جهنمية، لكن قبل ذلك لا بُد من لقاء معها كي أخبرها أنني في استياء مما حدث، وأن قراري الفصل هو الذهاب بلا رجعة حيث لا يعرفني أحد، دور الحزن الذي لا بُد وأن يلعب بإتقانٍ، قابلتها على النيل الشاهد على ما جرى، فاض بها الكيل، تعلم أن والدها في وضع إجتماعي لا يسمح له أن يناسب أمثالي، رغم ثرائي إلا أنني سأظل بائع اليانصيب الذي كان فقيرًا، وضع تحت «كان «مائة خط، الماضي الذي لا يمحى غباره أبدًا، نعم لم أكن في مرتبتهم قديمًا، إلا أنني الآن صرتُ غنيًا، إلا أن ذلك لا يشفع لي عندهم، لن أنسى عينيها التي ذبلت

عندما سمعت مني تلك الكلمات، احتضنتني ولم تعبأ بشيء، تريدني أنا ولا شيء غيري، أخبرتها بأن كل شيء سيكون على مايرام، وأن الله يسمعني وسيقف بجواري، مضيت في خطتي التي رسمتها، في الثامنة صباحًا أعلم أن الوزير يعبر إحدى الشوارع الكبرى ويقف بموكبه في إشارة للمرور بجوار إحدى البنايات المتهالكة، سأصعد إلى الأعلى وأقذف على سيارته حجرًا ضخمًا يصيب ولا يقتل إن أصاب أصلًا،

هو لا يعرف أن سره قد فُضح أمره من ابنته، إذًا لن يشك لحظة في أن تلك الحادثة مدبرة، لكنه سيدرك حينها أنني كنت أحميه من الكثير، وأن فراقي قد يكلفه حياته وفق معتقداته، صعدت على البناية، جهزت بجوارى حجرًا ثقيلًا استطعت حمله بالكاد، وبمجرد أن وقف بسيارته أفلته من يدي، ثوان وسمعت صوت الاصطدام بالسيارة، اختبأت داخل عشة للفراخ على السطح، خشية أن يصعد الحرس إلى أعلى ويكتشفون أمري، سمعتُ حالة من الهرج والمرج، وبعض من الطلقات النارية تضرب في الهواء، أضحك ضحكا هستيريًا وأنا أتخيله على الحالة التي سيكون عليها، شعره الأبيض سيحترق من الخوف، وبطنه التي تمتد لأمتار أمامه ترتعش ولا تجد لها مسلكًا للهروب لكونه قد دخل السيارة بطريق الحشر، أكتم ضحكاتي حتى لا يسمعني أحدهم، انتظرت قرابة نصف الساعة ثم خرجت بعد أن كدت أختنق من الرائحة العطنة الموجودة في بقايا تلك العشة، تدليت إلى الأسفل،

وضعت يدي في جيبي ومشيت باتجاه سيارتي وأنا أطلق الصفافير من فمي وأتغنى ب «قالولي هان الود عليه، ومشيت وساب قلبك وحداني، رديت وقلت بتشمتوا ليه، هو افتكرني عشان ينساني.

ركبتُ سيارتي واتجهت إلى منزلي الجديد الذي اشتريته بأرقى مناطق القاهرة، استلقيت على سريري ولم تمضِ قرابة الساعة حتى رن جرس الهاتف، رفعت السماعة فوجدت الطرف الآخر يخبرني بأنه مدير مكتب الوزير، دقائق وسمعت صوته يقفز من الهاتف قائلًا:

- نبيل.. أريدك حالًا في أمرٍ هام.

أجبته قائلًا:

- سيدي الوزير لقد طردتني من مكتبك شر طردة، كرامتي تمنعني من الحضور.

تعصب بلهجة عنيفة قائلًا:

- إحضر حالًا

وأغلق السماعة في وجهي، مثل ذلك الرجل أشد ما يؤذيه أن يشعر بأنه في حاجة لأحد، يشعر بأنه قد تدنى حجمه وصار كعقلة الاصبع، أنا فعلتها، لا أعرف من أين أتيت بكل ذلك الخبث والدهاء!!

إتجهت إلى مكتبه، قد ترك خبرًا في الخارج أن يسمحوا لي بالمرورِ سريعًا إن حضرت، بمجرد أن رآني نهض من على

كرسي مكتبه واحتضنني بشدة، تعجبت مما فعل، أنظر على يميني ويساري في دهشة لعله سيتبع ذلك العناق بصفعة أو بهجوم من البوليس لتنفيذ أمر إعتقال، من الواضح أنه قد إبتلع الطُعم، عدت مرة أخرى لعملي الذي أحبه، أن ترافق المنصب لهو أمر أرقى من أن تكون في المنصب ذاته، لا التزام عليك ولا ضرر يمكن أن ينال منك، الحياة السياسية غير مستقرة ولا تستقر أبدًا وأنا لست بحارًا ماهرًا كي أقذف بنفسي وسط الموج الهائج كي أصطاد، أنا أتركهم يصطادون ثم آخذ نصيبي الذي يكفي معدتي، عرض أن يتم تعييني رسميًا إلا أنني رفضت، السلطة تعتبر في يدي، لماذا أضع نفسي موضع الشبهات والقيل والقال؟ لازلت جبانًا أعلم ذلك، حتى جاء اليوم الموعود، يوم أن وافق على زواجي من ابنته، المال في حوزتي والسلطة ترافقني و سليلة الحسب والنسب في انتظاري، إن قال أحدهم لي في يوم أن حياتي في سنوات بسيطة قادمة ستكون كذلك لكنت قد هشمت رأسه لكونه من العرافين الدجالين الذين لا بُد من حرقهم أحياء.

مرت الأيام ومضت كلها في ترتيبات الحفل الأسطوري، ستكون ليلة من ألف ليلة وليلة، سِمة الأغنياء حين يقررون الفرحة، القصر مزين بأضواء تكفي لإنارة الدولة بأكملها في حال انقطاع التيار، والموائد فرشت بالطعام من كل حدب وصوب، والمعازيم حدث ولا حرج، أصغرهم وزير وأكبرهم أُخشى التحدث عنه،

ودعوات بالشيء الفلاني وخبر بكل الجرائد الخاصة والعامة، المعارضة والموالية، أصبحت فعلًا نبيل الشيشيني رجل الأعمال المعروف، مشهور في كل الأوساط، زوج ابنة صاحب السلطة والنفوذ، بدأ الحفل والكل في انتظاري، أرتدي بدلتي وأقف منتظر العروس حتى خرجت من غرفتها كي نتدلى على السلم كأمير وأميرة. انتهت الملكية إلا أن هناك أناسًا مازالوا يمارسونها، طلت من غرفتها كما العصفور حين يستقرعلى شجرة كي ينفض على أغصانها عناء التعب، ابتسمت بمجرد رؤيتي وكأنها وجدت الضالة التي تكبدت العناء في البحث عنها طيلة سنوات تقدر من يوم ميلادها حتى تلك اللحظة، تتهادى خطواتنا على السلم والجميع من أسفلنا يشيرون لنا بعلامات الفرح والتصفيق الحار، من بينهم إستقر نظري عليه، إنه خيرت اللواتي يقف مبتسمًا وسط الحضور وفي يده امرأة، دققت النظر، لا أبالغ إن قلت أن الزمن بالفعل قد توقف حينها، انتابني الصمم رغم الضجيج الصادر من كل شبر في تلك الأرض، انطفأت كل الأنوار رغم لفيف المصابيح المتناثر أرضًا وجوًا، أظلمت الدنيا رغم الألوان التي اتخذت من عيني وطنًا كي تحيا فيهما دون مستعمر يعكر الصفو ويعرقل المسيرة، نادية تقف بجواره، متلاصقان ومتشابكا الأيدي، بينما يقف هو مبتسمًا بملء شدقية، عينه تلمعان بشكل مخيف، كل ذلك لا يهمني، المهم أنه انتصر في حربنا الباردة وفاز بنادية، الحب الذي

لا أتمالك نفسي حين يعبر فقط في خيالي، فما بالك بعد مرور سنوات يتجسد من أمامي في صحبة من يكره القلب ذكره، اتضح الآن أن خيرت هو حبيبها الذي حدثتني عنه في ذلك الجواب، التقطت أنفاسي بشق الأنفس، الجميع يتلامزون فيما بينهم، يتهامسون، الشلل الذي أصابني لم يكن مدعاة للسخرية بقدر ما أن عرف أحدهم ما أمري سيشفق عليّ، تسمرت مكاني، تذكرت كل شيء، حتى جوابها الذي صدمتني فيه ظل بحوزتي لم يغادر، جميلة كما كانت بل زادت، مثل تلك المرأة السنين تمر لتضيف لها لا كي تسلب منها، كلما مر عليها الزمن كلما نضجت كالتفاح، تركت يد عروستي وتقدمت إلى الأمام في اتجاهها، الجميع قد صدموا مما أفعل، في الاتيكيت ما أفعله جريمة، أصبحت في مواجهتها تمامًا، أبت عيني أن تحيد عنها، وأبى القلب أن ينشق عن حبها، وراح العقل يفكر في كيفية الخروج من المأزق الذي وضعت نفسي فيه حالًا.

نظر لي خيرت بترقب قائلًا:

- أعرفك.. نادية.. زوجتي.. تزوجنا منذ عام.

كيده كان عظيمًا، حقًا استطاع أن يكسر بداخلي شيئًا لن يعود مرة أخرى كما كان من قبل، إن خيرني الآن بين المال والحسب والنسب والسلطة وبينها لتنازلت عن كل شيء في مقابلها، إن كانت منذ بداية الأمر قد انصاعت لي لكنت الآن في أحضانها دون حاجة لكل ما اقترفته من أفعال، كان الكون برمته

سينصلح على الأقل بالنسبة لي، ما ذنبي أنا كي أحمل إثم البشر وآلامهم أجمعين؟

لم أدرِ بنفسي سوى وأنا أرفع يدي وأهديه صفعة قوية وضعت داخلها كل الغل والحقد والمأساة الذين تورطت فيهم، سقط أرضًا وسيطرت على الجميع حالة من الهرج والمرج والصراخ، أناس يجرون باتجاهي كي يبعدوني، حالة لم أفهمها، أقف ثابتًا لا أدري لماذا يفعلون كل ذلك، هو المخطيء، هو من سلب مني حياتي و منحني حياة أخرى لا تخصني، تفاصيل لن يفهمها أحد ولن يعقلها سوى من ذاق النار وتجرع الأسى، حملني بعض الرجال كي يمنعوني من الهجوم مرة أخرى، عدت إلى جوارها ولازالت تقف على السلم كما كانت، أنا أريد أمي، أريد أن تخبرني ماذا أفعل وكيف أتصرف، تجلس نادية بجواره على الأرض كي يفيق والدموع تنسال من عينيها، لتلك الدرجة تحبه، الحظ قد منح له أعظم شيء، الحب، ومنح لي أمنيات لا أكذب إن قلت أنني كنت أحلم بربعها، لكنه تفوق أيضًا في الجولة الأخيرة.

ـ لماذا فعلت ذلك؟

قالتها ناهد وهي تنظر لي شذرًا.

أخبرتها بأنني كنت في ضيق منه ولم أنسه طيلة تلك الفترة، ولم أدرِ بنفسي حينما تذكرت أنه كان يود أن يأخذك مني لأني أحبك.

عاودت الابتسامة تداعب وجهها من جديد، تجهم وجهي وظل يحدق في اللاشيء، وتركتها في فرحتها وهي لا تدرك أنني لا أحدثها هي، بل أحادث نادية.

إنتابت مراد حالة من القشعريرة، ذروة الجنون تحدث هنا، ما الذي يجري؟

نادية، أمي كانت زوجة لخيرت اللواتي، زوجة لبائع الحظ الذي يحاوطني من كافة الاتجاهات، أنا في حالة يرثى لها، أنا لا أفهم شيئًا، تهادت تلك الأيام اللعينة على جسدى وكأنما ترتدي الشوك.

ظل يصيح بثرثرة لا تُجدي نفعًا من جراء ذهوله مما يجري، بدأت الصورة تتضح أمامه بعض الشيء، تيقن من كون الانتقام كان هدفًا لخيرت دون أي شيء آخر ذو نفع يذكر، هو لا يدرك ما حدث تحديدًا لكنه يتأكد من كونها فاجعة، في البقية سيعرف، لكنه أصبح يخشى فتح تلك المذكرات أكثر من خشيته من الموت، هي موت في حد ذاتها، أن يخيب ظنك في من تحب لهو أمر جلل، في أصدقائك، عائلتك، أحبائك، اعتقادك فيهم حتى وإن كان خاطئًا يظل أفضل من كشف المستور، أحيانًا يستر الله الحقائق رحمة بنا ورأفة، نحيا ونموت على معتقدات إن بدت لنا ما كانت إلا لتسؤنا، لكن الآن قد كُشف الغطاء من أمامه عن كل

شيء، إنه بلاء من الله، النعيم في الستر وهو ما كان ليستر أحدًا، لم يتوقع أبدًا أن يكون جزاءه بذلك النمط، صبر نفسه بأنه أشجع الشجعان، وأنه محامي نابغ لا يكسره أحد ولا يذيقه كسرة العين كائنا من كان.

يطل من النافذة التي اقتطعها لنفسه من ذلك الحيز الضيق، على تلك الحالة يوميًا، لم يصبه الضجر يومًا أو الملل رغم ثبات المنظر الخارجي، والذي لم يتبدل منذ أن وطأت قدماه المصحة النفسية بعد أن حكمت المحكمة عليه بالإيداع هنا، حديقة فارغة تمامًا إلا من بعض المرضى الذين يظهرون يوميًا في ساعة محددة، فسحة من الوقت يرون فيها بعض الخضرة كي تجدد الخلايا البصرية التي اعتادت الجدران والظلمة، المرضى النفسيين هنا ليسوا في أحسن حال كما يصور البعض، هم مجموعة من البشر تم احتجازهم دون أسس معلنة، جميع من في الخارج لا تقل درجة مرضهم عمن في الداخل، الفارق أن هؤلاء محاطون بأسوار شاهقة، حرية منقوصة دون أدنى تعويض، يجلس نبيل الشيشيني بجوار تلك النافذة، لا يعلم أحد فيما يفكر، أصيب بحالة من التيه تمنعه حتى من الشعور بشهوة البطن، يدخل عليه أحد الممرضين قائلًا:

- نبيل بيه، هناك زيارة لك.

إلتفت بفزع، شخص من العالم الخارجي يزوره في عالمه، لا يريد رؤيتهم، يدرك أن ما هو فيه نهاية حتمية، إلا أنه يفضل أن يموت بسلام وسط هؤلاء، أن تكون آخر صورة يراها من خارج تلك النافذة مشهدًا أخيرًا لحياته، لم يتوقع يومًا أنه سيصل لتلك المنطقة من العمر في ذلك الحيز المكاني، خرج من الغرفة ودخل إلى غرفة الاستقبال، بمجرد أن فتح الباب حتى رأى خيرت اللواتي يجلس في انتظاره على المكتب، ارتعشت يده وكأنها لمشلول لا يقوى على حمل أظافره.

بمجرد أن دخل و رآه طلب من الممرض بحدة أن يعيده مسرعًا مرة أخرى إلى غرفته، نهض خيرت واقترب منه قائلًا:

- في ذات المكان الذي مكثت فيه ما يقرب من أربعين عامًا أقابلك، عجيب ذلك القدر.

هنا أدرك نبيل الشيشيني أنه وراء كل ما حدث له طيلة المدة السابقة، وأنه قد وصل بالفعل إلى مراد وأخبره بالحقيقة الكاملة، قال له نبيل في تنمر:

- أيها العجوز، لم تنسني طيلة تلك المدة، كنت أوقن تمامًا أننا سنلتقي عاجلًا أم آجلًا، حتى من جاءني في محبسي واتفق معي على صفقة الجنون تلك بدلًا من حبل المشنقة كنت أعلم أنه من طرفك، كنت أكذب نفسي دائمًا، كيف لم تمت وأنت حبيس تلك الجدران طيلة تلك السنوات؟

أجابه في ثبات:

- كنت أحفر إسمك على كل شبر في تلك المستشفى، جئت حاملًا نفسي بإرادتي إلى هنا مرة أخرى كي أراك، رغم أن دخولي هنا كان من الممكن أن يكلفني الكثير، ورغم ذلك جئت دون خوف، تغيرت الإدارة هنا وتغير كل شيء بعد ما مرت به الدولة من أحداث، إلا أن إسمك لازال محفورًا بالدم، كنت أقاوم الموت من أجلك كل دقيقة كي أخرج حتى يتثني لي أن أفعل بك أضعاف ما فعلته ولن يشفي غليلي.

تنهد ثم تابع:

- هل تعلم أن الفيديو الذي كان سببًا في قتل زوجتك كان مشهدًا من كواليس أحد أفلامها، بالطبع لا تعلم لكونك غير متابع لها، فصدقت وقتلتها كنتيجة حتمية لما رأيت، قتلت ابنك وزوجتك دون شفقة أو رحمة.

ترددت تلك الكلمة في أذن نبيل، دوت في أفق تفكيره، هجم عليه وأراد خنقه، وهو يصرخ في وجهه:

- سأقتلك أيها اللعين، أنت حقير وضيع.

يبتسم خيرت اللواتي ببلاهة تامة بينما يد نبيل تلتف حول عنقه دون مبالاة، يجاهد على التكلم قائلًا:

- كان من السهل عليّ قتلك بمجرد خروجي من هنا، لكني فضلت أن أذيقك طعم العقل حين يحبس وسط الجنون، بالطبع ذلك أصعب من الموت، لكني لم يتبق لي من العمر كي أراك وأنت تمكث هنا نفس المدة التي قضيتها أنا، وجب عليّ الآن أن أريحك من شقاء الدنيا وتعبها، لم يتبق أحد لك، ابنك قد باعك في سوق النخاسة وها هو سيلاقي مصيرًا أشد وطأة مما قابلته، وزوجتك وابنك قد قتلتهما بيديك.

تبدلت الأماكن بعدما انقض عليه خيرت وقاومه حتى بات هو من يحكم قبضته حول رقبته، يخنقه دون شفقة، يداه لا تود أن تتزحزح لوهلة، يحاول نبيل بيده أن يزيحه كي يتنفس إلا أنه فشل، يريد أن ينطق بشيء، عيناه قد جحظت واكتسى وجهه باحمرار الدم، لم يترك له الفرصة، قتله، قتله بتلذذٍ مهيب، أنتظر تلك اللحظة منذ زمن، راحة ما بعدها راحة قد عصفت به، أخذ نفسًا عميقًا وكأنه يريد أن يستمتع برائحة الهواء بدون ذلك الملعون، انتشله من على الأرض بعدما خر ساقطًا ووضعه على الكرسي، ضغط على جرس الإنذار، تجمهر جميع العاملين بعد استدعائهم صاح بصوتٍ عال:

- لقد فقد الوعي فجأة.. جلسة كهرباء بسرعة

جاهدوا على حمله وفي وسط الزحام والانشغال استطاع خيرت أن يفر من بينهم دون أن يروه، لمحهم من مسافة وهم

يمسكون به إلى غرفة الكهرباء، بينما يتجه هو إلى الخارج في إنتصار عاش طيلة ما عاشه يحلم بأن يتم على أكمل وجه.

اتجه مراد حيث الميعاد المتفق عليه، روان تجلس في انتظاره أمام المقهى، نظر في ساعته كانت العقارب تشير إلى التاسعة مساءًا، تأخر نصف ساعة كاملة، قالت له روان بمجرد رؤيته:

- ظننتك أنك خالفت ما اتفقت عليه.
- أنا لا أخلف وعدي أبدًا.
- لذلك أنا أحبك.

نطقت بها زورًا، إلا أنها كانت كشعاع شمس في ليلة شتاء قارس، تحاوطه كي تحجب عنه ما قد يتسرب إلى داخله من لسعات البرد، حديث العالم يكمن في صوتها، يشعر بأن الحياة تود أن تعتذر له، تتمنى رضاه ولن تحاسبه على شيء مما اقترف، مُزقت الدفاتر وجُفت الصحف وسُطرت ورقة أخرى ناصعة في حياة هانئة لا يحكمها إلا قلب حنون يدرك قيمة الحب وسلطته، نسى كل ما جرى له، نسى أباه ولم يتذكر سواها، يود أن يرى فرحتها بعد دقائق حين تصبح مالكة لذلك الكيان، على الأقل سيكون مرتاح الخاطر تجاهها، ليست حبيبته بل إبنته التي يشعر بأنه مسؤول عنها، كل شيء يسير على ما يرام، أخرج من جيبه

العقد وأعطاها إياه، وقعت روان عليه كطرفٍ ثان مشترى، كأنها في حلم لا يجف منبع تأويله أبدًا، ذلك المكان الذي تعشق كل ذرة فيه أصبح ملكها.

منذ أن ذاقت لذة الإدارة وهي تنتظر الشعور بنشوة الملكية، أن تصبح من ذوي الأملاك لهو ثاني أفضل شعور بعد السير عاريًا على شاطيء بحر في منطقة منعزلة حيث لا يراك أحد، طلب منها أن تغلق الباب، أمسك بيدها وأجلسها على منضدة بمنتصف المقهى، وقف أمامها وانحنى ثم قال:

ـ أنا هنا في خدمتك.. ما هو مشروبك المفضل؟

ضحكت ضحكة طفولية قلما ضحكتها، من الصعب أن تستخلص من إنسان تعدى الثلاثين بعض من الطفولة التي تظل عالقة بجزء في الداخل، لا تنكشف إلا إذا استُدعت، هي الآن لا تعدو عن كونها طفلة، طلبت بعضًا من الشاي بالحليب، مشروبها المفضل، تحب المزيج دائمًا، تؤمن بأن الله خلق كل مستقل كي يمتزج بآخر ليصنعا الجديد، إلا هي خلقت مستقلة وقررت أن تظل كذلك، مررت أصابعها على المنضدة أمامها وهي في حالة عدم تصديق لما وصلت إليه، اتجه إلى الداخل وخرج بعد دقائق حاملًا كوبًا من الشاي السادة، وضعه أمامها قائلًا:

ـ لم أجد حليبًا في ذلك المكان.. إدارة فاشلة.

ينتابها حالة من القلق، تعرف عنه أنه لا يغلق عليه باب هو وامرأة إلا وافترسها، هل من الممكن أن يفعل ذلك معي؟

ليس من الممكن، بل من المؤكد، أخذت تفكر في طريقة ما تمنع بها أي تجاوز قد يحدث، ليس من أجل الشرف وحسب بل لكون مرضها يمنع جسدها من تحمل تلك الغريزة البشرية، ستخبر عادل بكل شيء بعد أن تنجز مهمتها التي بدأتها من أجلهما مجتمعين، ستخبره بأنها إمرأة ناقصة لا يصح أن يكون لها زوج يضاجعها كما الأسوياء، وله القرار، إقترب منها، جسده إلتصق بجسدها تمامًا، اقترب بشفتيه من وجهها، ارتعشت، طبع قبلة على جبينها ثم إبتعد عنها وإتخذ بعض الخطوات حيث النافذة، طل منها وهو يعطيها ظهره ثم قال:

- أنا لا أريد جسدك يا روان، أنا أحبك، ومن يعرف الحب لا يعرف للجسد طريق إلا والحب حارسًا لبابه كي يأذن له بالدخول أولًا. طُفت وصاحبت وعرفت واستكشفت وذقت من النساء الطيب والخبيث، إلا أنكِ بالنسبة لي خارج نطاق البشر.. أنا أحبك.. وسأفعل كل ما في مقدوري كي أثبت فقط للعالم أن مثلي يمكن أن ينبض له قلب.

إخترق حديثه قلبها دون هوادة، شعرت بأنه استثناء من الكذب، هو فعلًا يحبها لكنها لا تمتلك من الأمر شيئًا، هي ليست له، عامة قضى الأمر، هى عاجزة و الحب وحده لا يكفي يا عزيزي.

إرتجفت حين شعرت ببعض من البرودة، عيناها اغرورقت بدمع مخنوق، قالت بصوتٍ مرتعش:

ـ أنا مريضة.

كل شيء ينهار في لحظة صدق، لحظات محتلة غاشمة تُقحم نفسها في السياق دون استئذان، تستبق كل شيء كي تنفلت وتخرج للحياة، كل شيء كان يسير على ما يرام، تجلد ذاتها ندمًا على ذلك الاعتراف المضن، لم تقل شيئًا بعدها وصمتت تمامًا رغمًا عنها، لكونها لم تعثر على مزيد من الكلام كي يقال، ظل هو على نظرته من النافذة، نهضت واتجهت إليه، مدت يدها بالعقد قائلة:

ـ خذ عقدك لست مضطرًا لذلك.

تمنت لو يأخذه منها ويعود كل شيء لسابق عهده كي تختفي عن الأنظار تمامًا وتنتظر الموت دون عبء يجهدها ولا معروف لابد وأن يرد، ولا حياة تخشى من كل خطوة تترك أثر على أرضها، الانتظار أشد من الموت ذاته فما بالك بمن ينتظر الفناء!!

وإن كان يعلم أن ذلك سيحدث أصلًا دون مرض وخلافه إلا أن الإنسان ود لو يعمر، أما هي ودت أن تحيا حياة طبيعية وتموت بعدها، لا مانع عندها من ذلك، ليست طامعة في أكثر من حياة، على قدر الحلم تكون المشقة وهي لم تحلم بالكثير

نظر إليها قائلًا:

ـ أعرف ذلك.

إنعقد حاجباها في دهشة ثم قالت:

- كيف؟

- رأيتك بالصدفة تخرجين من المستشفى، كنت سأقف بالسيارة كي أسأل عن سبب زيارتك لهناك لولا أنني تابعتك حين ألقيتِ بملف في صندوق للقمامة وانصرفتِ، أخذت الملف وقرأت ما فيه. لم أفهم الكثير منه، عرضته على أحد الأطباء الأصدقاء وأخبرني بالحقيقة كاملة.

أتعلمين، كنت أود أن أحتضنك حينها، كنت أود أن أقول لكِ أنا هنا لا تخافي، هناك شخص ينتظر روحك وفقط، يريد التخييم تحت قدميكِ.

ركضت إلى الخارج بسرعة، ركض وراءها وظل يطلب منها أن تنتظر، إلا أنها أوقفت تاكسي ومضت، وقف في منتصف الطريق يراقبها حتى تلاشت تمامًا.

قطعه رنة هاتفه، وضع الهاتف على أذنه قائلًا:

- من معي؟

صمت لثوانٍ، وضع يده فوق رأسه قائلًا بحدة:

- ماذا تقول؟

ثم سرعان ما عاد لرشده قائلًا:

- ليس لي أب على قيد الحياة من الأساس كي يموت، يمكن أن تكون قد إتصلت على رقم خاطيء.. حاول مرة أخرى.

جلس على الرصيف المجاور له وهو يبكي، يبكي على حاله أكثر من حزنه على أبيه، يقول في نفسه:

ـ لما كل ذلك الحزن؟

لقد ألقيت به في المصحة النفسية بمحض إرادتي، لقد ارتكب كل الموبقات، أخشى من أن أترحم عليه كي لا أصدم في بقية ما سيحكيه، هناك سر ما يخص أمي وهي سبب عودة ذلك الرجل، بالطبع ارتكب من القذارة ما يجعلني أود التقيؤ، جل ما يحزنني أنني أحمل اسمه، لو كان التنازل جائزًا لتنازلت دون ندم يعقبه، حمدًا لله أنه ذهب قبل أن أقتله، ولا مساحة عندي ولا رصيد لسيئات أخرى.

القاهرة 1971

أشعر بغربة موحشة رغم جدران المنازل التي تلتهمني، وطرقات الوطن التي تبتلعني، وثرثرة الأصدقاء التي تعانقني، رغم الشهيق والزفير، رغم الغطاء الحامي من البرودة النازحة، رغم النيل والبحر والمطر، رغم النساء، رغم حديث يربت على القلب، رغم أحدهم حين يعض على يدي دون ارتخاء،رغم أن العطر المحبب لم ينفذ بعد، والقميص المدلل لم يسكن جسد غيري، رغم فنجاني، فنجاني الذي لم يستطع الزمن أن يقتطع منه آثار الشفاه، تيه في عمق سحيق يحاوط أغصاني، بئر في نفسي قد

www.maktabbah.blogspot.com

نضب، عيناي باتت لا تدرى المغزى، وقلبي لم يعد قادرا على التأقلم، صوت الحياة على بعد خطوات، أريد أن استرق السمع، لكن صوت المعركة قد هيمن على مسامعي، دون هوادة

لم أنس أبدًا يوم أن رأيتها في حفل زفافي، هيئتها المرتعبة بعد أن منع الحرس خيرت من رد الضربة لي ورموه في الخارج، حاولت التماسك، دعوت الله ألا يظهر شيء مما أبطن، كنت أريد أن أخطفها إلى خارج حدود الدنيا إن أمكن، أن أستسمحها بالحسنى كي تتركه وتمضي معي، لكني لن أتركه؛ فوالله الذي خلق السماوات بغير عمد لألقنه درسًا قد يكلفه حياته عاجلًا أم آجلًا. الأيام طويلة والحياة تقهر من يمل أولًا، وأنا لا أمِل، مارست حياتي الطبيعية على أكمل وجه، طلب مني الوزير أن أدير له شركة الملاحة البحرية التي أنشأها منذ سنوات، يثق فيّ وفي حظي، طلبت منه أن أدخل شريكًا بالنصف، وافق حين ألحت ابنته عليه، ليس في حاجة للمال، هو في حاجة لمدير جيد، سنتان كاملتان مضت وأنا لا أفعل شيئًا سوى إدارة الشركة ومراقبة خيرت ونادية، لم يرزقهم الله بأطفال، كنت أحمد الله على ذلك لكوني لن أتحمل أن أرى أطفاله ممن أحببت تتقافز أمامي، أنتظر اللحظة المناسبة كي أضرب ضربتي، لم يرزقني الله أنا الآخر بأطفال، كانت الصاعقة حين أخبرنا الطبيب بعد جهد مبذول أن زوجتي لن تنجب، لا مفر، طلبت السفر إلى الخارج،

أخبرني بأنه لا فائدة من ذلك، زوجتي أصيبت بسرطان الرحم وتحتاج إلى تدخل جراحي عاجل. تمسكت بي حينها وطلبت مني ألا أتركها، بالطبع لن أتركها، لم أحبها يومًا إلا أنني لا أجد مفرًا إنسانيًا يجعلني أهرب، رافقتها في رحلة علاج تحملت فيها ما لا يطاق، أتذكر قبل إجراء الجراحة جلست بجوارها أقرأ بعض الآيات القرآنية، نظرت لي بابتسامة ثم قالت:

ـ الحياة الآخرة من بعدك ستكون موحشة.

شعرت بغصة في قلبي، مسحت بيدي على وجنتيها وطلبت منها ألا تقول ذلك مجددًا، سيزيد الله على عمرك عمر آخر، همست في أذنها أن تتمسك بالحياة قدر حبها لي، أعلم أن الله إن أمرها أن تسجد لغيره لسجدت لي، طمأنتها وليس في داخلي ذلك القدر من الثقة الذي إنعكس على مظهري، كان القلق يتوارى من خلفي ويعبث بمخيلتي كل حين، دخلت إلى العمليات، انتظرنا في الخارج أنا ووالدها قرابة الساعتين حتى خرج الطبيب وهو يقول في انزعاج:

ـ المؤمن مصاب.. تماسكوا.. إبنتكم في ذمة الله.

إنهار السيد الوزير، للمرة الأولى التى أرى فيها الانكسار يأكله بِنَهم، فَقَدَ فلذة كبده، إذا لم يشعر الإنسان بالحسرة في ذلك الموقف إذًا فمتى سيشعر من الأساس؟

أمسك بي وظل يصرخ في وجهي:

- أنت السبب.. أنت السبب.. غراب البين كما أخبروني عنك وكذبتهم من أجل ابنتي، ذلك اللقب اللعين مرة أخرى يناديني به على مرآى ومسمع من الجميع. أنا رجل الأعمال بعد كل ما توصلت إليه يطاردني ذلك اللقب مرة أخرى.

ظل يسب ويصرخ ويضرب وأنا أقف ثابتًا لا أبدي أي ردة فعل، يلومني بأنني كنت نحس على تلك العائلة، تلويت داخلهم كالثعبان وكانت النتيجة أنه خسر أعز ما يملك، ابنته الوحيدة، لماذا يعاملني على أنني لم أخسر زوجتي أنا الآخر!!

الحب لم يكن متوهجًا بيننا لكنها في الأخير كانت زوجة لي، العِشرة لها منطق يترك بصمته في القلب حتى وإن لم يكن يميل كل الميل، وبخني وحذرني بأنه إن رآني مرة أخرة في شارع يسير فيه سيزهق روحي، وطلب أن أعود من حيث أتيت.

لن أخفي سرًا، منذ شهور بعض تغير السياسات، تم تجنيدي من قبل سُلطة عليا في الدولة كي أكتب تقاريرًا تخص ذلك الرجل، أنا زوج ابنته ولن أبيعه لكنهم لا يمزحون أبدًا، على الرغم من علمهم بأنني زوج لابنته إلا أنهم يعرفون أصلي وفصلي، المزاح معهم قد يكلف الكثير، كنت أدلهم على بعض مواضع الفساد الغير هامة عندهم، هم يبحثون عن شيء ما، كنت قد قررت أن أؤجل تقريري الذي سيطيح به عند لحظة غدر منه، إلا أن الميعاد قد حان وذلك الرجل لا بُد وأن يرتدي الجلباب كما يقولون،

إتجهت إلى هناك، قابلته، ذلك الرجل المهيب ذا الشعر الأبيض، لا يخرج من مكتبه إلا للضرورة، بمجرد أن رآني حتى صافحني بيده للمرة الأولى قائلًا:

- البقاء لله.

- ونعم بالله

جاهدت رهبة الجلوس أمامه، لم ينظر لي، ظل يحدق في بعض من أوراق أمامه، تشجعت وقلت:

- ها هو تقريري النهائي في ذلك الرجل، لا عيش معه بعد وفاة زوجتي، ماتت من كنت أكرمه من أجلها، سيدي، فساد ذلك الرجل قد استشرى.

لم يرفع رأسه وظل يسمع وهو على ذات الوضع الذي بدأه. أكملت:

- ليست تلك هي المشكلة، إنه يخطط كي يعتلي منصبًا أكبر في الدولة، الانقلاب عليكم خطته القادمة، كي يكون هنا بدلًا من سيادتكم.

نظر لي حينها نظرة مرعبة، انكمشت في جلدي وأكملت مسرعًا:

- أو أقل قليلًا.

ناولته ملفًا به كامل التقرير، أشار بيده معلنًا انتهاء اللقاء، اتجهت إلى الخارج كي أتنفس، الحياة هنا بالداخل مظلمة، لا

تجرؤ أشعة الشمس على الاستيطان هنا رغم أنها مهمتها الرئيسية التي خلقت من أجلها. إلا أن هؤلاء البشر إن صح أن أنعتهم بتلك الصفة يعبثون بالثوابت قبل المتغيرات، خرجت متجهًا إلى الشركة، كنت على يقين مما سيحدث، الأمن بالخارج منعوني من الدخول، يستخدم سلطته البالية في منعى من حقي، صِحتُ في وجههم:

- أنا مدير تلك الشركة وشريك فيها، لم يسمعني أحد، هم ينفذون ما أمروا به على أكمل وجه.

قابلني رجل في الأسفل، أشار لهم بأن يسمحوا لي بتعدي ذلك الحاجز الأمني، أعطاني حقيبة بها مبلغ مالي لا يتعدى ربع ما دفعته، ويريد مني التوقيع على عقد ببيع نصيبي، مزاح سخيف واستغلال سيىء للسلطة، رفضت استلام المبلغ كما رفضت البيع، المفترض أن نصيبي يزيد ولا ينقص مضافًا عليه الأرباح على فرضية الموافقة على البيع، أخبرني بابتسامة لزجة بأن الشركة تتعرض للخسارة وها هي خطة الحسابات تؤكد صحة ما يدعيه، يعاملونني على كوني غريب، الورق ورقهم والدفاتر دفاترهم والدولة دولتهم، غادرت وطنين الظلم يقبر ما تبقى داخلي من أمل، أيام وأنا أجلس في منزلي لا حول لي ولا قوة. ضاعت أموالي في غياهب السلطة وماتت زوجتي سليلة الحسب والنسب وضاعت حبيبتي في أحضان غريب، راودتني الشكوك بأن ذلك المسؤول حتى قد تخلى عني، هيئتي تصرح بأن الوهن قد تملك

مني، أصبحت ذا لحى كثة، شعري يلتف حول نفسه كعراك بين أشقاء أضخمهم لا يقوى على حمل نفسه، طيلة الليل لم يذق جفني وسنًا، استقر نظري على جوابها الذي لم يفارقني لحظة، رغم كونه مؤلمًا حد الموت إلا أنه الشيء الوحيد من رائحتها، فتحت جوابي لها الذي كان جوابها ردًا عليه، معي نسخة منه، أقرأ بصوتٍ عال كأن صوتي سيحمله الريح إلى هناك حيث تقيم قائلًا:

- يا عزيزتي أنا لست منهم، هؤلاء الذين لا يملكون وسيلة للتعبير عن ما يكمن في صدورهم سوى بالهدايا الملفتة المغلفة، حيث يتوارى خلفها مادية عفنة، أتعلمين، وأنا أكتب إليكِ ذلك الخطاب، تلك هي سيجارتي الخمسة بعد المائة، أنفث دخانها فتتشكل هيئتك من عدم الحياة وفنائها، دخانها إختلط بمزيج الحب المنصهر من حنايا القلب، يخرج مسرعًا من صدري الضيق إلى براح روحك. كل ليلة أراقصك على أنغام عُزفت لي وحدي، من حجرتي حيث الظلمة والوحدة، الحياة قاسية، خاصة على من يعلقون الحياة على شرط الحب، أنا لا أمتلك ما يمنع نفسي من الانسياق خلف مشاعر قد تصل إلى حد الهذيان، الحياة متخبطة كحافلة للنقل العام، يقودني جسدي المنهك إليها، أخطو بقدم وأعافر بالأخرى، برفقة حلم تزوريني فيه يوميًا، أتوكأ عليه وأهش به على حزني، خير السند والرفيق، مددت يدي بطولها إلى وجهٍ شاحبٍ ذي عينين يبدو عليهم جليًا أن

النوم قد أخبره بأن هذا فراق بيني وبينك، أدركت أنه السائق حين تخبط يمينًا ويسارًا كي يجد أرضًا تخلو من همهمات البشر ليستقر عليها، حتى لمح بقعة خالية إلا من حجر قد سقط من عقار متهالك كانت تقطنه أمي العجوز، أحاول جاهدًا بكف يدي أن أحجب أشعة الشمس النازحة بعد أن استقرت على عيني فباتت رؤيتي مشوشة، تمسكت جيدًا بذلك الباب المتصدع، لم أتأخر سوى بضع ثوانٍ، بالنسبة لي لا شيء، بالنسبة له كان وقعهم ثقيل، كطفل يحمل حجرًا أضخم من بنيته، لا الطفل يقدر ولا الحجر بإمكانه أن يتدلى، وضعت إحدى قدمي على الدرج والأخرى تتشبث بالأرض فلا تود أن ترتفع كي أصعد، لكن سرعان ما استجابت لذلك الصوت الجهور حين نهرني، كل الجالسين على مقاعدهم لم يبدو على ملامحهم الضجر، كانوا في سكون تام، متكئين برؤوسهم على المقاعد، مسافرين إلى أبعد مما يتجهوا، يجاهدون كي يعبروا ذلك الجدار العازل، انكأت أنا الآخر وسافرت على متن تلك الرحلة التي لا تنتهي، كنا جميعًا على متنها مستسلمين، حتى سائقنا حين أصابته العلة أصر الاستكمال، وأنا أيضًا لم أكمل إلا من أجلك، يومًا ما سأستقر على صدرك كي أضع لكِ سكر الشاي قطعة قطعة.

انتبهت لنفسي، لما ارتفع صوتي لذلك الحد، لن تسمعني حتى وإن كانت بجواري، الحزن قد عشش وبنى لنفسه خندقًا في وجداني، صبيانية ما نفعله أحيانًا يكون مسلك هروب من هيمنة واقع لا يغفر لمن أساء له أبدًا، نهضت من مجلسي كي أتصفح الجريدة لعلي أجد فيها ما يشفي غليلي ويخمد بركاني، بمجرد أن ظهرت الصفحة الأولى حتى صدمني خبر تناولته الجريدة بشق رئيسي و بخط عريض، ثورة التصحيح، عزل الحكومة من مناصبها واعتقال الكثير منهم ومصادرة كافة ممتلكاتهم، النصف الأول كان مبهجًا بالنسبة لي أما النصف الثاني كان فاجعة، الشركة ملكًا لنا متناصفين، أخشى ما أخشاه أن يصادروا كافة كل شيء حتى وإن كان لي أسهم بداخل تلك الشركة، هم لا يفرقون في تلك الأحوال. العاطل يؤخذ بالباطل، وإن تفوهت بحرف يمكن أن يتذوق جسدي نوم السجن وأنا لا أحبه عامة.

www.maktabbah.blogspot.com

بهيئته المتشحمة يحارب، من أجل قضمة عيش هي في الأصل من حقه، سرقتها الحياة في طفولته وطلبت منه حينما أصبح يافعًا أن يتذلل كي تقتطع له كسرة خبز كان يملكها، لم يكن له نصيب من اسمه، اسمه عادل ولم تعدل الدنيا في ميزانه أبدًا، يعمل بنصف طاقة، والنصف الآخر معها، روان، التي لا تبل ريقه ولو بقبلة، يريد أن تشاركه حياته في زواج على سنة الله ورسوله،

لا يريد منها شيئًا قد حرمه الله، قرع باب حجرتها في التاسعة صباحًا قبل الذهاب إلى عمله وطلب منها الدخول، لم يلاقي منها السلام الحار الذي اعتاد عليه، أعطت له ظهرها واتجهت إلى السرير حيث كانت، تشعر بأنها ترتكب ذنبًا ما في حقه، ضميرها ينغزها، تود أن تخبره بعلتها التي تدفعها دفعًا لاستكمال خطتها كي تمنح له حياة أخرى مقابل حياتها التي ستنتهي قريبًا، تشعر أن النهاية باتت قريبة، إلا أنه لن يتفهم الأمر أبدًا، يشعر هو الآخر بأنها تغيرت تغيرًا ملحوظًا، اقترب منها ثم قال:

- أشعر بأنكِ لستِ روان التي أعرفها جيدًا.
- أنا بخير.. لا شيء.. أوهام في مخيلتك و فقط.
- لست مرتاحًا لتلك اللهجة. هل ظهر ذلك الشخص الذى يدعى مراد ليعكر صفوك مجددًا؟
- لا، لم أره منذ فترة.
- عمومًا أنا بجوارك، لا تخشي شيئًا طالما تمنحني الحياة في أضلعي هواء أتنفس به.

إبتسمت وأدارت وجهها بينما إتجه إلى ورشته، بدلت ملابسها واتجهت إلى المقهى، لم تخبره بأمر المقهى حتى الآن، جزء من الحلم قد تحقق وقد يفسده عليها، سيدرك في الوقت المناسب، وها هي اليوم ستضع لمساتها الأخيرة لاستقبال الرواد في أول أيام العمل، إلا أن اليوم يختلف عما سبق، عندما كانت مجرد نادلة بالمقهى كانت الحياة بسيطة، سلسة، لا مؤامرات ولا تعقيد، كان

هناك بعض من الأمل في حياة طبيعية، فهناك عبد فقير قد أحبها و يقاتل من أجلها، قمة المتعة أن تجد من يتكبد كل ذلك العناء من أجلها، قررت أن تخالف سُنة الكون في لحظة ما، طيلة ما حيت كانت تنتظر فرصة تقلب حياتهم رأسًا على عقب، إلا أنها لم تأتِ، كان في الانتظار لذة كبرى، إلا أنها قررت تبديله بلذة أعظم، لذة أن تحقق ما تصبو إليه، قررت ألا تنتظر مرة أخرى وتقلب هى حياتهما بيدها، القائل بأن الفرصة كانت ستأتي أسهل وأشرف من ذلك محق والقائل بأن الفرصة لن تأتي مطلقًا محق أيضًا؛ لأن اختلاف البشر على شيء في علم الغيب يعد من قبيل الهراء والهباء المنثور، الحقيقة حينها تكون مجهولة، لا توجد بذرة كي يمكن تحديد نوع الطرح على اساسها، كلها تكهنات لا جدوى منها، وصلت إلى هناك، كل شيء في الداخل يذكرها بما مضى، أفنت زهرة عمرها هنا، الأمر ليس ماديًا بحت، المقهى لا يُدر دخلًا عظيمًا، إلا أنه مسألة ترتبط بالخاطر والوجدان، كل حدث يضع نفسه في مصاف الذكريات يكون أجمل، في الذكريات رائحة يستنشقها القلب وحده، حلوها ومرها، الإنسان يقتات على الذكرى، وما الطعام والشراب إلا وقود يحرض العقل على إلتهام صور الماضي التي قد شكلت حياة موازية لما نحياه، في الغالب تكون أجمل، ليس لأنها كانت رغدًا من العيش بل لمجرد أنها أصبحت ذكرى، رفعت جفنها لتتأمل المكان، فوجئت ببائع الحظ يقف في الداخل متأملًا لها، انتبهت قائلة:

- أفزعتني.
- المفترض أنكِ أصبحتِ ذا قلبًا شجاع لا يفزع ولا يخاف، مصنوع من فولاذ.
- ظن خاطيء.
- الخطة تسير على أكمل وجه، يفصل بينك وبين المال خطوة.
- أنا تعبت، أود أن أكتفى بذلك المقهى وفقط وتصرف أنت معه وحلال عليك كل ما يملك.
- طريقى لا عودة فيه من المنتصف إما الاستكمال وإما العودة لنقطة أقل من نقطة الصفر، حذار أن تعبثي معي، طالما بدأنا اتفاق علينا أن ننهيه.
- مراد ليس سيئًا لتلك الدرجة.
- لم أقل أنه سيء، هو مجرم والمجرمون ليسوا سيئين للدرجة.
- إذًا ماذا يمكنني أن أفعل.
- تزوجيه.

رهبة الكلمة قد تملكتها، تبدلت ملامحها إلى فزع من مجهول قائلة:

- مستحيل.. يستحيل أن يحدث ذلك.

- لا تخافي، الأمر لن يتعدى الثلاثة أيام ولن يلمسكِ أحد، ستعودين من تلك الرحلة عذراء كما كنتِ، الرسميات وفقط هى الأهم وبعدها ستحصدين الأموال، وتتزوجين عادل أو غيره، لا يخصني

- ولكن كيف؟

- لا تسألي عن أشياء ليست من شأنك، أنا أعرف كل شيء، خطتي محكمة ولا اختراق فيها ولا ثغرات.

تود أن تقف روان عند تلك النقطة و ألا تكمل تلك اللعبة، الأمر بات خطيرًا، بإمكنها أن تقول لا، أن تصرخ في وجهه كفى، تثور الأفكار برأسها، لم تتفق على زواج، كيف سيتقبل عادل الأمر إن نما إلى علمه ذلك، لكن الأمر لن يتعدى الأيام كما قال، من الذي قال؟ من ذلك الشخص أصلًا؟ أنا متعبة سأقول لا، رفعت رأسها وما همت على أن تنطق حتى رأت مراد يجلس أمامها قائلًا:

- أنا هنا منذ دقائق وأنتِ في عالم آخر، ما بك؟

- هل رأيته؟

- رأيت ماذا؟

- لا شيء، أعتذر عما حدث البارحة.

- تعالي معي سأريكِ شيئًا.

أخرج من جيبه قطعة من القماش سوداء اللون، لفها حول عينيها فباتت كالغمامة حيث لا ترى من خلفها شيئًا، أمسك بيدها كمرشد لها واتجه بضع خطوات للأمام، أزالها من على عينيها، رمشت بجفنها بضع مرات كي تتضح الصورة المشوشة، سيارة فارهة تقف في الخارج ومفتاحها يتدلى من يد مراد أمام عينيها، همس في أذنها:

- هدية المقهى، لا يجوز لفتاة جميلة مثلك أن تذهب لعملها في سيارات الأجرة.

فتحت فمها في دهشة، ابتسامة ارتسمت على وجهها يصارعها الحزن كي لا تكتمل، تخيلته عادل هو من يفعل كل ذلك من أجلها، ليت الدنيا قد صالحته ونظرت له بوجهها الحسن بعد الفاجر قبل أن تتورط هي، كانت ستكون في أشد لحظات سعادتها إن كان حبيبها هو من يهديها تلك الهدايا، لكن لا بأس، خطفت من يده المفتاح وركضت في اتجاه السيارة، فتحتها وجلست في الداخل، تتحسس كل شيء، نعيم ما بعده نعيم، كلما تراجعت خطوة للخلف كي لا تكمل تلك المهاترة كلما أذاقتها الدنيا بعضًا من طعم ملذاتها مجبرة إياها على الصمود والإكمال.

نظر لها وهو يقف خارج السيارة قائلًا:

- هل تقبلين زوجًا لكِ؟

- كيف وما بي من عِلة؟

أخبرتك مسبقًا أنني لا أريد جسدكِ أريد روحكِ، أريد النظر إليكِ كلما أنهكتني الظروف، كلما ضاقت بي الأرض ولفظتني خارجها أستبق الجميع كي أرتمي بداخلك، أنا لست طماعًا، أريد أن تكوني بجواري وفقط.

الحب يجعل الإنسان يرتكب أفعال مجنونة لا ترتيب لها ولا ميعاد، قرارات فوضوية لا يفكر متخذها في نتائجها أو في مدى قدرته على التحمل، يحركنا تجاه المنشود رغم خطورة العواقب. اللحظة دائمًا هى المتحكمة، الاستغناء في الحب وارد إذا كان الحب صادقًا، حتى وإن كان الجنس وجه آخر لعملة واحدة، إلا أن هناك رجال صدقوا ما عاهدوا، بإمكانهم العيش بوجه واحد من العملة، كالذي يعيش بكلية واحدة بعد فشل الأخرى في إتمام دورها الفسيولوجي، لن يموت، صدقًا لن يموت، لكونه يحب الحياة بصدق، ومن أحب بصدق لن يموت، حتى وإن حارب نداء الطبيعة، سينتصر، حتمًا سينتصر.

نظرت إلى السيارة ومن ثم إلى المقهى ومن ثم إلى مراد ثم قالت:

- قبلتك زوجًا لي.

صادروا كل أمواله بما فيهم أموالي، أهذا هو رد الجميل!!

قررت أن أذهب إليه في مكتبه وأخبره بأن يرد لي نصيبي مما تم مصادرته، أنا شجاع وسأفعلها وليكن ما يكون، جلست أمامه كالقنفد كما يحدث في كل مرة، شل لساني عن النطق، لا أعرف ماذا أقول؟

خائف جدًا، ظللتُ أعبث في شعري وذقني كالمجذوب، نظر لي بعد أن طالت مدة العته تلك قائلًا:

- ما بك؟

طارت الشجاعة، ما أحوج جبان مثلي أن ينطق أحاديث الشجعان، أجبته:

- لا شيء

صدمني بقوله:

- أنت إنسان أصيل وأمين ووفي لنا، لقد قررنا أن تكون عضوًا في البرلمان في الدورة القادمة بعد أيام، ممثلًا لنا في الخفاء كي تكمل مهمتك، لكنك أمام العامة معارضًا شرسًا وفي صف المعارضة دائمًا، سنتولى نحن كل شيء.

ضحكت بصوت عالٍ، الفرحة لم تسعني، جئت كي آخذ أموالي فعينتُ تابعًا لذلك الجهاز الحساس، السلطة بدلًا من المال، أوافق بالطبع، ماذا جلب المال سوى الخيبة والندامة والفقر

مرة أخرى حين فشلت في حمايته، وبدأ العمل الدؤب، مؤتمرات وندوات، لافتات وصور في شتى الأنحاء، وعدتُ الناخبين بتولي أمرهم في كل شيء، كنت أود أن أصارحهم بأن البرلمان يعدهم بالفقر والجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات، والصابرون لهم الجنة، لكني لم أقل شيئًا، ضيق الحياة أحيانًا يجبر على الانحراف والكذب. مهما كان المعدن الأصيل للنفس، كانت حرب شرسة، تولوا أمر كل شيء، أنا فقط كنت أنفذ ما يملى عليّ، لا أعلم سر شراستها لكنهم أكدوا لي ذلك بعد إعلانهم نجاحي، أقف على المنصة وأحرك جسدي كما الشرفاء تمامًا وأنا أقرأ الخطابات المكتوبة لي، مصطلحات تداعب أذن الفقراء والمهمشين ولا ملجأ لهم سواها، يود الفرد أن يسمعها يوميًا حتى وإن لم ينفذ ما قالها ثمة شيء، الأمل عند الفقراء في حد ذاته يولد الصبر على الحياة وضيق رزقها، كيف سيعيشون دون أمل؟ دون وعد بأن تكون حياتهم أفضل، يعيشون في طيات الانتظار، أرحم لهم وأهون من أن يعيشوا على يقين الموت.

صرت عضوًا بالبرلمان، على اتصال وثيق بجهاز حساس في الدولة، تلك هي جنة الله في أرضه، انشغلت عن نادية لفترة، لن أسمح لشيء أن يأخذني منها، كلفت أحدهم بمراقبتهم يوميًا، بائع الحظ كما هو يبيع الحظ للناس ولا فارق سوى مسحة ضئيلة من الشعر الأبيض قد تمكنت من شعره في غير أوانها، تدرج قليلًا حتى أصبح رئيس رابطة بائعي اليانصيب المشهرة حديثًا،

ونادية جليسة البيت لا تفارقه إلا قليلًا. استقليت سيارتي وذهبت إليه في عقر داره لعلي أراه، يتواجد ببنك القاهرة المسؤول عن كافة أعمال اليانصيب، يحب تلك المهنة وأقسم ألا يفارقها رغم ابتعاد من كان يحميه، بالطبع اِخترع حظًا جديدًا يناسبه في مرحلته الجديدة، لا يعنيني ذلك، لمحته يقف خارجًا، مررت من أمامه، أجلس في الخلف ولي سائق خاص، بمجرد أن وقفت أمامه اقترب من السيارة، كان يظنني أحد مريديه، انحنى كي يكشف شخصية من في الداخل، انفزع من رؤيتي؛ قلت له:

- حقي لم أنسه ولن أتركه.

أشرت للسائق أن يبتعد وظل هو يحدق إلى السيارة حتى اختفيت تمامًا، وضعي يسمح لي الآن أن أنتزع منه نادية رغمًا عنه وعنها إن استدعى الأمر، أريد رؤيتها، أود أن أختلس ولو نظرة، اتجهت حيث تقطن، ضغطت على الجرس، فتحت لي باب منزلها، بل فتحت لي باب الحياة على مصراعيها، بمجرد رؤيتي قالت:

- ماذا أتى بك على هنا؟

رغم اتصال علمها اليقيني بحبي الدفين تجاهها إلا أنها لم تنس ما فعلته بزوجها في حفل زفافي أمام مرأى ومسمع من الجميع، حين فتحت لي الباب ظننته باب الجنة، ظلت ملامحي كلها تنجذب إليها، ساكنة محدقة تتحسس ملامحها البريئة، عطرها يفوح منها كالمرة الأولى، لم أنسه يومًا، يلتصق بأنفي

كقرون الاستشعار منذ أن شممته، كنت أتلفت حولي دائما لعلها تكون قريبة؛ قلت لها بعد أن كادت تغلق الباب:

ـ لازلت أحبك.

تنهدت بضيقٍ ثم قالت:

ـ صارحتك منذ الوهلة الأولى بأنني لا أحبك كي لا تتعلق بحبال واهية، لم أغشك يومًا أو أكذب عليك، دعني أنا وزوجي وشأننا، نحيا حياة كريمة فلا داعي لإفسادها.

لم أدري بنفسي سوى وأنا أقول:

ـ ستكونين لي عاجلًا أم آجلًا.

غادرت من على متن روحها واتجهت إلى مكتبي، كتبت تقريرًا أكدت فيه أن هناك من يرغب في تهديد سلامة وأمن الدولة من بقايا نظام باند، ودونت اسم خيرت اللواتي، هو المدبر والعقل المخطط، يحاول تجنيد المواطنين والايقاع بهم في شبكة أفكار متطرفة يحملها على عاتقه، وذكرت عمله مع ذلك الوزير قبل عزله وتاريخه كله، معلومة مهمة تؤكد صحة ما أدعيه، يحملون أفكارًا متطرفة لا تتماشى مع نظام الدولة وحكمها، في آنذاك الحالة لم تكن مستقرة تمامًا، الترهل السياسي وتربص القوى ببعضها البعض كان في مصلحتي، الكثير يتأهب لتصفية الحسابات، حملت تقريري إلى مكتبه، قرأ ما جاء في صدره ثم قال:

ـ معلومة مهمة كتلك يلزمها دليل ولو بسيط يعزز الموقف.

أجبته بسرعة:

- موجود يا فندم، من فضلك أستسمح سيادتكم بإدخال الشاب الذي ينتظر في الخارج، إنه محمد صالح، موظف ببنك القاهرة، شاهد على كل شيء.

دخل الشاب وهو يرتعش.. شاب يعمل في بنك القاهرة، إنهار أمام المال بالطبع حين عرضته عليه كي يشهد بتلك الشهادة الزور، وحتى وإن لم يكن المال كافيًا لكانت سلطتي أجبرته على فعل كل شيء، لكن لماذا لا أفيد وأستفيد، لست طماعًا أو فاشيًا.

سأله:

- ماذا تعرف عن..؟

ثم نظر إلى الاسم المكتوب في تقريري وأكمل:

- خيرت اللواتي؟

أجابه:

- هو رئيس رابطة بائعي اليانصيب، يحمل أفكارًا متطرفة ويحاول جاهدًا تجنيد الموظفين والعملاء عن طريق شرح مساوىء النظام وظلمه وتوجهاته الضارة بمصلحة المواطن وقد وقع الكثير بالفعل في شباكه لانفتاحه يوميًا على أكبر قدر من فئات الشعب المختلفة، وأؤكد لسيادتكم أنه على اتصال وعلم وتخطيط بكل التظاهرات التي تجري، حاول ضمي شخصيًا إلا أنني رفضت لكوني أثق في القيادة الحكيمة.

أشار له بكف يده أن كفى، أطاعه و اتجه إلى الخارج وغادر المكتب، لدقيقتين الدم حبس في عروقي وشعرت بمرارة في الحلق، أخشى أن يعرف ما فكرت فيه، فهؤلاء يعرفون أين يخبيء الفار الجبن، نظر لي بمجرد خروج ذلك الشاب قائلًا:

- نظرتنا فيك لم تخيب منذ الوهلة الأولى ووقف بعد أن كان جالسًا كي يصافحني يدًا بيد.

وقع قرار الإعتقال في التو واللحظة بعد أن جلس مرة أخرى، لذة الانتصار.. ساعات وسيكون خيرت اللواتي في خبر كان.

- هل من الممكن أن تصلحها سريعًا كي ألحق بهم؟

قالها بائع الحظ لعادل بعد أن عاد له بتلك السيارة القديمة مرة أخرى.. الوقت قد تأخر و عادل كان على وشك إغلاق الورشة وتسليم المفاتيح؛ قال في نفسه:

- ذلك الرجل العجيب مرة أخرى، تلك السيارة لا ينفع معها إصلاح مكانها القمامة.
- تقول شيء؟
- لا يا سيدي، ماذا أصابها مرة أخرى؟
- لا أعرف لكنها بمجرد أن تسير بضع الكيلو مترات تقف فجأة وجئت هنا بعد أن تكبدت مشقة كبيرة.
- سأفحصها حالًا.

- أرجوك سريعًا أود أن ألحق حفل زفاف أعز أصدقائي.
- أمرك
- لا بُد أن أكون بجواره لقد تزوج بعد قصة حب عنيفة من فتاة كانت نادلة بمقهى قريب من هنا.
- حالًا
- هل تعلم لقد شرح صدري تجاهك، على الرغم من سعادتي الغامرة بزواجه إلا أنني حزين لأن الفتاة التي تزوجت كانت قد وعدت آخر بحب وزواج لكنه وسوس لها كالشيطان حتى تزوجا، مراد هذا كالعفريت.

بدا على عادل بعض من التوتر، يشعر بأن ذلك الرجل يلمح لشيء ما، نادلة في مقهى، مراد

اقترب منه عادل قائلًا:

- هل تعرف روان؟
- هل تعرفها أنت.. لماذا لا تأتي معي حفل زفافها الآن إن كنت على قرب منها؟

ابتلع ريقه وبدا على وجهه الشحوب وانتفض قائلًا:

- زفاف روان.. هل تزوجت؟
- نعم تزوجت مراد وتركت شخصًا عفيفًا، ليس لها ذنب حقيقة لم تصمد أمام حاله وماله.

- اللعينة؟ سأقتلها.. بعد أن تحملت من أجلها ما لا يتحمله بشري على وجه الأرض تكون تلك النهاية البغيضة نهايتي.

- ولماذا تقتلها هي؟ من وجب قتله هو مراد، الأنثى يا صديقي تظل تحب حتى الرمق الأخير، إلا أن وسوسة بعض الخبيثين من الرجال لا يصمد أمامه كائنًا من كان، خصوصًا بعدما اشترت المقهى أصبحت لا تناسبها مقاما

قال عادل باستغراب:

- اشترت روان المقهى؟ من أين أتت بالمال؟

ضحك بائع الحظ باستخفاف حتى نغزه عادل قائلًا:

- ما بك؟

- أخبرتك بأنها تزوجت من مراد تسألني من أين أتت بالمال!! تافه أنت يا صديقي.. يحتفلون الآن في حفل صغير بالمقهى.

أخرج بائع الحظ من جيبه صورة لروان ومراد وقت توقيع العقد؛

قال عادل وهو يغلق باب الورشة بعنف:

- سأنتقم.

تركه بائع الحظ وانصرف إلى المقهى كي ينتظر عادل هناك ليرى بأم عينه حادثة قتل أليمة لعريس داخل عرسه، مؤلم

حقًا ذلك الشعور، يقف في الخارج يتلصص على لحظاتهم في الداخل. روان تجلس بجانب مراد، الارتياح يظهر جليًا على وجه مراد الذي لا يصدق إن روان باتت حقيقة ملموسة في حياته، لم تصبح مجرد فتاة يطاردها في الطرقات، المقهى قد زين ببعض من الزينة الرقيقة والموسيقى الهادئة تجول في الأجواء لتحرك ساكنًا قد تيبس على تلك الوضعية منذ زمن، والمعازيم لا يوجد أحد، هما الاثنان وفقط والمأذون ثالثهما.

لمس مراد يدها كي يتيقن من ملمسها الحقيقي، نظرت له قائلة:

ـ ما بك؟

أود أن أتيقن أنكِ حقيقة ولست حلمًا من أحلامي التي يتحقق منها الخبيث فقط، تلك الطهارة وافقت على الزواج من مثلي، لا اصدق، لكن أود أن أشكرك على أنك صدقتي ما بداخلي ولم تدعِ الماضي الأليم يشدك إلى الرفض.

يضيق صدر روان من ذلك الحديث، هي ليست طاهرة كما يظن، ضميرها يؤلمها كسكين حاد اخترق القلب دون هوادة، هل ذلك من قبيل العدل؟

أن يحب رجل بصدق فتاة تود أن تستولى على ماله، رجل صادف كل نزوات الشيطان وتاب في محراب عينيها كي يتبتل فيه دون ما يزعجه، تزوجته من أجل الثراء وسريعًا ما ستنفصل، رفقًا بنفسك يا مراد الوضع سيئ وعكس كل ما تعتقد.

قالت ذلك في نفسها سرا ثم نظرت إليه ونطقت:

- أنا حقيقة.. لا تقلق.

- سنخرج من هنا على منزلي المجاور، نحتفل احتفالًا صغيرًا وحدنا، لا تخافي، احتفال دون أن يتخلله أي مما تفكرين فيه، كي أشعر بقربك مني وفقط، يغلق علينا باب واحد وأشعر بملكيتي لكِ، أنا وعدتك أنني لن أقترب منكِ، يا روان أنا أخاف عليكِ أكثر من خوفك على نفسك، وبعدها سأشتري لكِ منزلًا فاخرًا يليق بزوجة مراد الشيشيني.

يقف بائع الحظ في الخارج قلقًا، ينظر في ساعته، مضى ساعة ونصف ولم يأتِ، الخطة كانت تسير على أكمل وجه لماذا لم يتحرك ذلك الأبله كي يقترف فعلته وينتقم لحبيبته؟

زفر ضيقًا وتوترًا، انتبه لهما يخرجان من المقهى، استقل كل منهما سيارته وانطلقا إلى هناك، ركل بائع الحظ بقدمه عجل سيارته وأخذ يضرب بيده على سقفها تعبيرًا عن غضبه من عدم اكتمال ما خطط له، ركب سيارته هو الآخر وتتبعهم حتى وصلا إلى المنزل، فتح مراد الباب، كان دائمًا ما يفتح ذلك الباب من أجل ممارسة الرذيلة، من أجل حياة في ظاهرها حياة وفي باطنها قاع الجحيم المتخفي في هيئة الملذات، الراحة بداخله مؤقته، تزول بزوال المخدر، الشهوة لا يخمدها إلا دائم، ولا دائم سوى الحب.

تقدمت روان إلى الداخل ومن خلفها دخل مراد، جلست في الصالة بينما دخل هو غرفة النوم كي يبدل ملابسه، بمجرد أن فتح مراد باب الغرفة حتى فوجيء بحنان تجلس على السرير، تلك الفتاة المهووسة بمراد، عاهرة إلا أنها اكتفت به وفقط، بمجرد أن رأته ركضت ناحيته واحتضنته، أزال يدها من حول رقبته قائلًا:

- ماذا تفعلين هنا؟

- أنتظرك هنا يومًا ولا تأتي!! أين كنت طيلة تلك الفترة؟

فتحت روان الباب بحذر حين سمعت صوت همس في الداخل، إستقر نظرها على تلك الهيئة، حنان تمسك برقبة مراد شبة عارية، تبادر إلى ذهنها فكرة جيدة، يسوق القدر إليها موقف كهذا كي تتحجج بذلك وتترك المنزل، لقد أتمت عقد الزواج وليست في حاجة لأي شيء بعد ذلك، دون أن تنطق بأي شيء استدارت وتسارعت خطواتها بعد أن أخذت حقيبتها واتجهت إلى الخارج، حاول مراد اللحاق بها إلا أنه فشل بعد أن انطلقت بسيارتها وغابت عن نظره، بينما يختبيء بائع الحظ في الخارج مترقبًا لمجيء عادل كي ينتقم كما حرضه.

الفصل الأخير

وصلت روان إلى منزلها، هاتفها عادل وهي في طريقها للمنزل كي يخبرها بأنه يريدها حالا في أمر ضروري، كانت تشعر بغربة شديدة، تلك الغرفة المسماة بالمنزل رغم ضيق مساحتها وتشقق جدرانها إلا أنها تحتوي ما لم تستطع القصور والشقق الفاخرة احتوائه، لم تدرك تلك القيمة إلا بعد أن شعرت بأنها قد طُردت خارج حدود الدفء، ذلك المكان لا يسمح للروح بأن تشعر بالبرودة مطلقًا، دافيء كحطب مشتعل لا ينطفيء أبدًا، هنا يقطن حبيبها التي طالما حلمت به، الأول والأخير، لو كانت امرأة كاملة، إن كان الزمن قد سمح لها بأن تحيا كسائر الفتيات لتزوجته منذ الوهلة الأولى، ركاب أضخم السفن غرقوا رغم عظمة البنيان وقوته، المظهر ليس ضمان كافي لسلامة الوصول، ضمير الصانع والظروف يتحكمان كل التحكم في مسيرة الإبحار، قد تعبر البحر في قارب ضئيل الحجم وقد تغرق على متن سفينة عملاقة، قُرع

الباب، فرحت فرحًا جمًا لكونها تعرف إسلوب قرعه، لقد افتقدته كثيرًا، عانقته وضغطت عليه لتشعر بلحمه ودمه قائلة:

- بمجرد أن اتصلت بي جئت مسرعة إليك.

عانقها هو الآخر بشدة وحملها إلى الداخل، ترك نفسه كي يهوي بها وهما في حالة عناق على السرير، وضع يده على شعرها وتحسس وجهها بشفتيه، انتبهت روان لما يفعله، نظرت له نظرة صراع بين رعب مما يفعل ويقين يخبرها بألا تخشاه، قالت بحذر :

- عادل ماذا تفعل؟

لم يجبها، قبلها قبلة عنيفة، تحسس بيده مناطق الفتنة في جسدها، يعزف عليه كالبيانو، عازف محترف يحفظ آلته، حاولت دفعه بكلتا يديها، كان يقسو عليها بقوته، القوة التي إحتمت بها سابقا الآن تُستخدم ضدها، يجاهد على الالتحام أكثر، شفتاه لم تغادر مسكنها، استسلمت له، استسلمت تمامًا، ظلت تردد بصوتٍ هزيل دون مقاومة منها:

- كفى يا عادل.. أرجوك كفى.

- أنا أولى من مراد.

قالها وهو يكمل ما قرره، اغتصبها وهي لا حول لها ولا قوة، لو يعلم كم كانت تريده في الأصل، لو يعلم كم تمنت تلك اللحظة وانتظرتها منذ القدم، من قبل أن تولد حتى، لم تحب غيره مطلقا،

كل ما فعلته كان من أجله، كانت ستخبره حتمًا، كانت ستشرح له كل ما يفيض بصدرها، لم ينتظر حتى أن تنطق، خُيل له أنها تركته وضاجعت غيره، شيطان لعين هيأ له أن فعلته تلك رد لكرامة ظن أنها قد أُهدرت، ضل الطريق، ضاجعها واستسلمت له هي الأخرى، أن تموت في أحضانه خير لها من أن تموت بوسط شارع مزدحم حتى لا تتكشف سيقانها ويحملها غريب، حين قاومته كانت تقاوم الموت، تحب الحياة مهما كانت قسوتها، وحين استسلمت كانت قد استسلمت لموت كان يراودها عن نفسها في اليوم ألف مرة.

بعد أن انتهى من فعلته كانت طريحة الفراش، تتنفس ببطء، تشعر بألم شديد في صدرها قد تملك منها، نظرت له بعين مدمعة وقلب يرحمه حتى بعد ما فعله قائلة:

- سأموت.. أنا لم أكن أبدًا بعيدة عنك، لماذا فعلت بي ذلك؟

لم أرغب سوى أن أكون قريبة منك، كان كافيًا لي وفقط رغم رغبتي الشديدة في أن تفعل ما فعلت، أنا فعلت كل ذلك من أجلك، اِعلم أنني لم أَخُن.

هوى جفنها وأغلقت عينيها، نامت، لم تنم كي يغطي ما ظهر منها كما اعتاد، بل راحت في نوم لا رجعة منه أبدًا، ظل يهزها ويصيح:

- روان.. روان.. أجيبي.. روان.

لم تجبه كما كانت تجيب مسبقًا، تعود منها ذلك المزاح حين كان يوقظها صباحًا، كانت لا تستجيب لفترة قد تطول وكأنها فاقدة للوعي، كان يتملكه الرعب رغم أنه يعلم جيدًا أن جعبتها لا تخلو من المزاح، كان يخشى أن يفقدها، لا يتخيل أن تستقيم الحياة بدونها، لا يجوز ذلك في معتقده، وحينما يشتد عليه القلق كانت تفتح عينيها وتضحك، ينهرها بأبشع الألفاظ ويطلب منها بصوت غليظ ألا تفعل ذلك مجددًا، اليوم لن ترد، لن تفعل تلك الأفعال الصبيانية مرة أخرى، يحاول إيقاظها، ظل ينادي عليها لكن دون جدوى، تلبدت السماء بالغيوم، حل الظلام وباتت السماء أشد قتامة، تساقط المطر، يهطل بغزارة، حملها بين يديه وخرج بها ليقف أسفله مباشرة، يصرخ بصوت مفزع:

- روان.. ها هو المطر أخبريه بأنكِ كنتِ لا تخشيه ولازلتي.. روان أسمعيه صوتكِ حتى يبح.

إنهمرت الدموع من عينيه وتساقطت، زخات لا تقل قسوة عن ذلك المطر المتساقط، وضعها بجانب الحائط وجلس بجوارها ضامًا ركبتيه إلى عنقه، ينتفض جسده من قسوة البكاء، لا يدرك ما الذي حدث، لماذا أفضى ما فعله إلى موت، حملها وأدخلها غرفتها وركض إلى الخارج كالمجنون، الحب يقتل صاحبه أحيانا، يجعل المرء غير مدركا لما يفعل، سكرته مضنية وواقعه أليم، يبدل حال المرء من حال إلى حال، وهكذا تبدل

عادل، يجوب الشوارع هائمًا على وجهه، يسأل كل من يصادفه عن روان، يستوقف المارة ويسألهم:

- هل رأيتم روان؟ كانت تنتظرني

ينظر له المارة بتعجب..يحيدون عنه خوفا منه، ينادي عليها طيلة مسيرته:

- روان.. أنا هنا.

فقد عقله، يتمتم بكلماتٍ غير مفهومة، صدمة عاتية زلزت الأرض من تحت قدميه، غاب عن الوعي ولم يفقده، يعرف الأشخاص والأماكن، يحدق في وجوه المارة لكنه لا ينطق سوى بالسؤال عن روان أين هي؟

رفض عقله تصديق أنه قد قتل من أحب، قتل حبيبته أبشع قتلة، لم يقصد ذلك، فعل ذلك من أجل أن يتزوجها هو، لمجرد توريطها في أمره، الجنون كانت نهاية لمطافه، تعاقب عليه الليل والنهار وهو يبحث عمن يرشده إليها، توهمه نفسه ببعض من الخيالات الكاذبة، يظن أنها حية ترزق و أنه لم يقتلها، يصيح:

- من سيقول لي أنها قد ماتت سأفصل رقبته عن رأسه، روان لم تَمُت، روان قد هربت من جراء فعلتي الغاشمة.

دفعها مراد من أمامه قائلًا لها:

- حنان، قلت لكِ مسبقًا أنا أرتاح هنا لكنني لا أحبك، فرق شاسع بين الراحة والحب وارتضيتي بذلك.

على الرغم من علمها بأنه لم يحبها مطلقًا وأنه يحب أخرى إلا أن الطابع الأنثوى قد غلب عليها، غانية تركت ميراث عفن ورائها وتابت من الجميع إلا منه، قررت أن تكون له وحده، لا تريد زواج أو ما شابه، كان مستعد لذلك لولا الحب الذي قفز في وجدانه فجأة ليفسد كافة ترتيباتها.

قالت له في هدوء:

- تزوج ما شئت إلا أنني سأظل حنان، الظل الذي تلجأ إليه في لحظات شمس حارقة، أدرك جيدًا أنك ستحتاجني كثير في الفترة القادمة، صدقني في مملكتي لا عذاب ولا هموم ولا إلتزامات، أنا لك وسأظل هنا و لن أتركك.

قالتها وقد استرخت بجوار مراد على سريره بينما يجلس شارد الذهن يفكر في روان زوجته التي يريد أن تكون هي من بجواره الآن، حقًا وصدقًا يحب أن يشعر بوجودها، لديها هالة من أمل وتمسك بالغد تحاوطه وتتمكن من خلايا جسده؛ قال في نفسه:

- سأذهب لها في المقهى بعد ساعات لأعتذر لها، أعتذر لها عن تأخري في كل شيء، حتى في موعد ظهوري لها، إلا أنها خطوات القدر التي لا يمكن العبث بها.

فتح مراد حقيبته وأمسك بالمذكرات ليكمل ما جاء فيها، بدأ يدرك سر ظهور ذلك الرجل له، كل ما وسوس له به كان من أجل الانتقام من والده، خصمه اللدود قديمًا، معركة من قديم الأزل وقع مراد ضحيتها، لكن لا بأس لقد أسدى له معروفًا طيبًا.

القاهرة 1971

ثلاثة أيام في غرفة الاستجواب، يجلس خيرت اللواتي في غرفة مظلمة ترى كف يدك فيها بالكاد، خلت من الاضاءة إلا من مصباح صغير وضع في أقصى الركن كي ينير عين المستجوب والتي تطق شرارًا، تخيف خيرت مهما بلغ من شجاعة، يسترق نظري ما يجري من شباك صغير في الخارج، ينكر كل الاتهامات الموجهة إليه، تتهاوى رأسه من قلة النوم، وعيناه تلونت باللون الأحمر كلون الدم، ومع الضغط واستخدام بعض أساليب التعذيب المتطورة نوعًا ما اجبر على الاعتراف ووقع على ورقة من أمامه في صدرها اعترافات تدخله السجن دون أن يخرج منه مطلقًا، بمجرد أن وقع على تلك الورقة دخلت أنا، جلست أمامه وجهًا لوجه، رفع رأسه ناظرًا لي وبمجرد أن رآني إبتسم ابتسامة سخرية قائلًا:

- غراب البين، كنت أعلم أنك وراء كل ذلك، سيظل ذلك النقص داخلك متحكمًا في كل أفعالك.

لم أغضب من نعتي بتلك الصفة، أنا الآن في وضع أقوى، أنا المتحكم في كل شيء، نظرت له بثبات وهدوء أحسد عليهم قائلًا:

www.maktabbah.blogspot.com

- خيرت.. أنت في وضع لا تحسد عليه، غياهب السجون تنتظرك، لن تبصر عيناك تلك بعد ذلك سوى الظلام، ثلاثين عاما بل قل أربعين، ذلك إن لم تُعدم في تلك القضية، لقد وقعت على جرائم من ضمنها التخابر مع جهات أجنبية.

استشاط غضبًا، حاول تحرير نفسه من قيوده، فشل فشلًا ذريعًا، ضحكت ضحكة شيطانية ثم قلت:

- فلنقل أنك تحررت من ذلك القيد، ماذا تظن نفسك فاعلًا بي؟

أنت في موقع من أشد المواقع حساسية وحراسة في العالم، خيرت، إصغ إليّ جيدًا، بإمكاني تخليصك من كل ذلك، أنا بيدي أن أخرجك من هنا لكن بشرط.

بدأ ينصت لما أقوله، من في وضعه لا بُد وأن يسمع كي يُنتشل مما هو فيه؛ أكملت:

- طلق نادية وستخرج من هنا.

أجابني بمستحيل؛ أكملت وكأنني لم أسمع شيئًا:

- أغمض عينيك، تخيل أن ذلك الظلام سيسود حياتك حتى مقابلة رب كريم، إحساس مقبض، لا تظن أن المعتقلين في قضايا التخابر إن لم يعدموا يعيشون حياة هنية بداخل السجن، على العكس، السخرة والتعذيب لهم الأولوية.

إقتربت من وجهه قائلًا:

- انفذ بجلدك يا خبرت الوضع مريب.

- وما الذي يضمن لي ذلك؟

بعد أن قالها شعرت بأن المهمة تكتمل؛ أجبته:

- لا ضمان هنا، الضمان هي الكلمة.. ماذا سيحدث أسوأ مما أنت مقبل عليه

- لكني أحبها

بعد أن قالها لم أشعر بنفسي سوى وأنا أركله في وجهه بقدمي حتى سقط أرضًا وهو على الكرسي مقيدا فيه، مسكته من قميصه:

- لا تقل تلك الكلمة مرة أخرى.. مفهوم؟

الدم يسيل من وجهه بغزارة حتى غرق قميصي؛ قال بصوتٍ منكسر:

- موافق

صِحت:

- أدخلوا المأذون.

تمت إجراءات الطلاق، نادية أصبحت حرة الآن، ملكًا لي وحدى، الغمة قد إنزاحت من أمامي بلا رجعة، تلك المسيرة كلها تكبدت العناء فيها من أجلها، أحبها، كل خطاباتي لها لم تذهب سُدى، خططت ونفذت من أجل أن أفوز بها، وها أنا قد إنتصرت.

خرجت إلى مكتب ذلك المسؤول الكبير، قلت له وأنا أقف أمامه:

- لا أعرف كيف أشكرك سيدي على تلك الخدمة.

قال لي بوجه بشوش:

- لا عليك يا نبيل، فعلت الكثير من أجل الوطن، خدماتك لا يستطع انكارها هنا الكبير قبل الصغير، لكن إسمع، سفره للخارج سيضعنا محل شبهات وقيل وقال، أعلم أنه لا سلطة فوق سلطتنا، إلا أنني عندي قرار أفضل، سأضعه المصحة النفسية والعقلية، سنصرح بأنه بعد إجراء التحقيقات تبين أنه مختل عقليًا وكل تلك الثرثرة التي نطق بها نتجت عن قصور في العقل، وبعد فترة من ايداعه سنعلن وفاته حتى نستدرج الفئران أتباعه ونجبرهم على الخروج من جحورهم مع استمرار ايداعه بالمصحة، بذلك يكون أمام الجميع قد توفى بينما هو تحت تصرفنا وتحت عين المراقبة.

- فكرة عظيمة سيدي.. أتفق معك تمامًا.

قلتها وضحكت ضحكة خبيثة بعدها، القدر لا يريد أن يرحمك أبدًا يا خيرت.

تركتها بعد تلك الحادثة ولم أزرها بالطبع، بالطبع علمت نادية بأمر طلاقها وبكل ما حدث لزوجها، إلا أنني إن كنت قد ظهرت بعدها مباشرة لكانت أتت بنتيجة عكسية غير التي أرجوها، ذهبت إليها بمجرد شعوري بأن حزنها يمكن أن يكون قد جف، لم أجدها في منزل خيرت، أخبرني أحدهم بأنها ذهبت إلى منزل العائلة، ذهبت إلى هناك، قابلت والدها، رجل من ذوي الأملاك إلا أنه طيب الخلق، لا دخل له بالسياسة أو بغيرها. إستقبلني استقبالًا حارًا بعدما عرفته بنفسي، بدون مقدمات طلبت منه يد نادية، وافق على الفور إلا أنه استأذنني في أن يأخذ رأيها، طلبت منه أن نجلس أنا وهي على انفراد قليلًا، صعد إليها، سمعت بعدها صوت صراخ يأتي من أعلى، تيقنت أنها ترفضني وإن طالت قتلي لفعلت، دقائق وتلاشى الصوت تدريجيًا، رأيتها تنزل من على السلم، كانت منكسرة وهزيلة وكأن الزمن جار عليها، أخذ منها روحها وباتت خاوية، وجه شاحب وقدمان يتعثران في الهواء من الوهن، جلست أمامي ثم قالت:

ـ ماذا تريد؟

أجبتها:

ـ يا نادية أنا أحبك.. وأنتِ تعلمين ذلك، أنا أود الزواج منكِ، هل تقبلين؟

حطمتني بحديثها حين صرحت بأنني رخيص غير ذي كرامة، وأنني فعلت في زوجها كل ذلك من أجل الحصول عليها، الحصول على شيء ليس من حقي بطرق قذرة تدل على كوني إنسان لا يعرف للحب معنى ولا للرجولة عنوانا

وضحت لها بأنها ستتزوجني حتى وإن حدث ذلك رغمًا عنها، في يدي الكثير لأفعله، لم أقطع كل تلك للمسافة من أجل أن أسمع كلمات لا تسمن ولا تغني من جوع.

أغلق مراد تلك المذكرات اللعينة، تضعفه أكثر من كونها تضع يده على مواضع الحقيقة، يضرب كفًا على كف مما يقرأه، والده كان بتلك الوحشية والهمجية، حمدًا لله أنه مات، كان على استعداد أن يخطف امرأة من زوجها لمجرد أنه يحبها بتلك الطريقة التي تثير الغثيان، كانت سطوته شرسة وقبضته مميتة، كل ما حدث له كان انتقام رباني، يقنع نفسه بأنه كان مجرد وسيلة، بالطبع سيسامحني الله لكونه استخدمني في القصاص ليس أكثر، فالعذاب في الدنيا أفضل من عذاب سرمدي.

حدثته نفسه قائلة:

- وأنت يا مراد، ما الفارق بينك وبينه!! أخذت ما ليس من حقك أيضًا، مال أبيك وحبيبة كانت لغيرك، سلبتها عنوة من أحضان حبيبها.

أجابها في محاولة للإقناع:

- لا.. أنا لم أتزوجها رغمًا عنها، وافقت لكونها هي الأخرى تود أن تحيا في عيش من الرغد، أنا عرضت فقط والعرض لاقى القبول، إذًا ما المشكلة؟ لم تترك حبيبًا خلفها بل تركت الفقر وودعته، حتى أنني قبلت ما لن يقبله أحد، أن تقضي ما تبقى من حياتها مع حبيب لا يرى في جسدها متعة وحيدة، أين ستجد مثل ذلك الشخص؟ لقد قررت ما لم أظن لوهلة أنني من الممكن أن أتنازل عنه إلا حين أحببت.

كل تلك الهواجس تداعبه، صداع في الرأس قاتل، إلا أنه لا يلقي له بالًا طالما حقق كل ما تمنى من تلك الحياة، انتصر عليها بعدما حذره الكثير بأنه لا يشد أحد على الحياة إلا وغلبته، لن يضيع وقتًا أكثر من ذلك في جدال عقيم لن يضيف جديدًا ولن يجعله يتقهقر عما صمم عليه، سيتدلى كي يبحث عنها، ليضمها إلى صدره ويخبرها بألا تفعل ذلك مجددًا.

ظل يبحث عنها في كل مكان، ذهب إلى المقهى ولم يجد لها أثرًا، إلى الحديقة ليست هناك أيضًا، في ذات اللحظة قرر بائع الحظ أن يتجه إلى منزلها كي يعرف ما حدث البارحة ليضع خطة أخرى من شأنها أن تصل به إلى مراده.

وصل بائع الحظ إلى هناك وصعد إلى السطح، وجد باب غرفتها مفتوحًا، لمحها مستلقية على سريرها شبه عارية، جثة

هامدة، ركض إلى الداخل، وضع يده عليها وبدأ في تحريكها، روان.. روان.. إلا أنها لم ترد، آثار تمزيق ملابسها واغتصابها بدت ظاهرة دون اختباء، تراجع خطوتين إلى الخلف وبدا مذعورًا، كل ما خطط له قد دمر في لحظة، لم يكن في حسبانه أبدًا أن تؤل الأحداث إلى ما آلت إليه، كل ما أراده أن ينقطع نسل ذلك الخنزير وأن تؤل أموالهم لمن يستحقوها، ما الذي حدث ومن فعل ذلك بها؟

أشعل السيجار وراح يفكر في كيفية التصرف، دخل مراد غرفتها هو الآخر لعله يعثر عليها، نظر إليه بعد أن فوجئ بوجوده، هرول باتجاهها وحاول ايقاظها هو الآخر، وضع رأسه على صدرها في محاولة لسماع النبض، لكن الصمت كانت الغلبة له، بدأ يرجها بعنف دون استجابة منها.

نظر إلى بائع الحظ الواقف في حالة يرثى لها، والذي لم يهمه موتها بقدر ما أفجعه انهيار كل شيء؛ التفت له قائلًا:

- روان.. ماتت.. قتلتها أيها الحقير.. ماذا فعلت بها.. كنت أعرف أن وراء اختبائك مصيبة تفوق ظهورك.

أجابه بعد أن بلغ الضيق منه مبلغه:

- لم أقتلها.. لماذا أفعلها وأنا من أرغمتها على الزواج منك، منحة مني وصدقة دون مقابل، ضيعتها أنت من يديك لأنك فاشل.

- اتصل علمي بما أتيت من أجله يا وقح، أبي استولى على زوجتك ودمر حياتك وأودعت المصحة العقلية، لكن ما دخلي أنا في كل ذلك، عدت كي تنتقم وكان القصاص ناجحًا وأودعته هو الآخر المصحة النفسية وقد مات، ما ذنب روان في كل هذا!! حقًا كل ما فعله أبي بك كان قمة العدل.

غريب أمرك يا مراد، تعلم ما أتيت من أجله وعلى الرغم من ذلك اتبعتني واستغليتني كي تحقق ما تصبو إليه، روان قد تزوجتك في مقابل أن تحصل على مالك وأنا من شحنتها بالرغبة من أجل أن تقبل، سلبتها أنت أيضًا من حبيبها، أغريتها بمالك، نسخة من أبيك، أمثالك يجب ألا يعيشون لوهلة على وجه الأرض.. الكل يا مراد هنا في معطفي، حتى حسين مساعدك قد سهل لي الأمور كثيرًا، شكرًا له، ينعم الآن خارج البلاد بعدما نفذ صفقته على أكمل وجه.

ثم إبتسم ابتسامة أثارت غيظ مراد وقوته قائلًا:

- أنا من قتلت أباك يا مراد، وأنت قاتل أيضًا، إن كنت قد تركتها وشأنها منذ البداية لكانت الآن تحيا في سعادة، تجتر من الحياة أمل تفتات عليه، أضعت أملها وطموحها وحبيبها، أضعت حياتها بأكملها، أنت شيطان رجيم.

لم يتمالك أعصابه عندما سمع منه تلك الكلمات، قتل أباه و الفتاة الوحيدة التي ترك الدنيا وملاذها من أجلها، قد قتلها

www.maktabbah.blogspot.com
بالشراكة مع وغد قد دمر له حياته وقلبها رأسًا على عقب؛ تقدم تجاهه قائلًا:

- أنت ميت أصلًا، شخص غير موجود في نظام الدولة.

- أنا حي أرزق.. أثبت لك ذلك؟

أمسك بالسيجار مرة أخرى ولامس بيده فوهته المشتعلة حتى احترقت يده، صرخ صرخة بسيطة ثم ابتسم، لقد شعرت بالألم إذًا أنا على قيد الحياة، أنت من يجب أن يزوره الموت حالًا، نسل ذلك الحقير يجب أن ينتهي تمامًا.

جرى كل منهما في اتجاه الآخر، التفت يد مراد حول رقبته كحبل المشنقة، حاول أن يفلت كي ينال منه، إلا أن مراد كان أقوى منه صحة وشبابًا، أحكم قبضته أكثر، يخنقه بينما كانت تداعب روان خياله، ابتسامتها، ضعفها، مرضها، حياتها وخفة ظلها.. أرادها لنفسه ولروحه، حتى طمعها كان حميدًا، كانت تود أن تعيش، لم تكن تود أكثر من ذلك، ظن أن الله قد أرسله كي يحقق لها أمانيها، ولو أنفق كل ما يملك عليها لكان سعيدًا راضيًا، كان الرضا سيغمره على الرغم من فقد المال، إلا أنه سيكون قد ربح الحياة، يده سيطرت أكثر على مجرى التنفس، أغلقه نهائيًا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

ارتاده قتيلًا بينما اقتحم عادل مشهدهم بهيئة المجاذيب.. يتطوح جسده في حالة عدم اتزان، ضحك بمجرد أن رأى روان،

جلس على الأرض بركبتيه في وضع أشبه بالجلوس ما بين السجدتين، مسح على شعرها قائلًا:

- روان.. أنتِ هنا وأنا أبحث عنكِ في الخارج، آسف يا حبيبتي على ما بدر مني البارحة، أعتذر، هيا بنا كي نذهب إلى الحديقة، شطائر التفاح في انتظارك.

يشدها من يدها في محاولة تخيلية لأن تنهض معه، وفي أثناء تلك الفعلة يقف مراد ناظرا إليه بعين الدهشة، نظر هو الآخر إليه قائلًا:

- ساعدني.. ألا تحبها أنت الآخر؟ إذًا فساعدني، لم أقصد قتلها.

خرج مراد من ذلك القبو الذي بات مظلمًا بكل ما فيه وفي الخلفية بائع الحظ ملقى على الأرض بعد أن أرداه قتيلًا، بينما يجلس عادل أمام روان يستجديها كي يصطحبها معه، وكله يقين بأن الحياة ستدب فيها مرة أخرى إذا تذلل، يسير مراد كالنائم بعد خروجه دون وجهة أو سبيل، عاد مرة أخرى من حيث أتى وهو يرتعد، فتح الباب إذ به يتفاجأ بحنان تقف وهي تمسك بالمذكرات على الصفحة الأخيرة، مدت يدها بها إليه، أمسك بها ووقعت عيناه على ما لن يحمد عقباه.

القاهرة يناير 1972

ابتعدت عن نادية لأيام ثم عدت مرة أخرى مجددًا طلبي لها

- لن أتزوجك

قالتها بعد أن بصقت في وجهي

واستطردت:

- لن يحدث.. لقد علمت اليوم فقط بأنني حامل، حامل من خيرت ولم أخبر ثمة مخلوق بعد بذلك الأمر لكن أظن أنه آن الأوان لكي يعرف الجميع.

نفرت عروقي وكأن الدم يريد أن ينفجر من جسدي في وجهها، اقتربت منها وقلت:

- لن يرى النور من يحمل اسم ذلك الوغد، إن أخبرتي أحدًا سأقتل أباه في محبسه، أنا من أدخلته المصحة العقلية وأنا من أستطيع قتله إن أردت.

بدأ حدة حديثها ينخفض تدريجيًا، لازالت تحبه وتخشى عليه من أن يلحقه ضرر، أعادت ما قلته باستفهام:

- ستقتله؟

- نعم سأقتله، وإن استدعى الأمر سأقتلك أنتِ الأخرى ومن في بطنك.

تزوجتني على مضض، حتى دون أن تمر فترة العدة، أجبرتها على ذلك، سلطتي وسعت كل شيء، وافقت خشية أن ألحق بحبيبها الأذى، كنت طامعًا فيها، كنت أحبها حد الجنون، كان من الممكن أن أقتل.. أحرق..أزور.. أفعل كل الموبقات من أجل الوصول إليها، لم تحبني يومًا ولن، أخفت حملها عن الجميع، كنت سأجبرها على الاجهاض، إلا أن خوفي عليها جعلني أتراجع بعد أن تذللت لي ألا أفعل بها ذلك، ولا سيما أن الأطباء نصحوا بعدم الفعل، وافقت وتركت ذلك الطفل في بطنها، لم تتركني أستبيح جسدها، كانت تغلق عليها الباب وتبكي بحرقة شديدة، كنت أسمع همهماتها من الخارج، لم أضغط عليها. بعد ولادتها سيكون لي تعامل آخر معها، حتى جاء اليوم الموعود، يوم الولادة، وضعت حملها، إلا أنها قد فارقت الحياة حينها، ماتت حبيبتي، كل ما فعلته واقترفته أصبح بلا قيمة، ماتت من فعلت كل ذلك من أجلها، أنا ممزق، إنتهى كل شئ، الحياة أصبحت بلا قيمة،بلا متسع من الوقت، كلما أنظر إلى طفلها كلما أتذكرها، أمام الجميع هو ابني من صلبي، لقد سلبت منه كل شيء، حتى ضناه، اسمه على الورق مراد نبيل الشيشيني وليس مراد خيرت اللواتي، لكنها لم تره، لم تتحسس ملامحه الدقيقة، وكأن الحياة رفضت أن تعطني إياها وتركت لي جزءًا منها يذكرني بها، رغم أنني لن ولم أنس.

أتيقن بأنه سيعود يومًا ما كي ينتقم، كم أخشى من ذلك اليوم، أنا خائف.

أمسك مراد بالهاتف بيد مرتعشة ودمع لا يجف، إتصل بالشرطة قائلًا:

- أريد أن أُبلغ عن جريمة قتل ابن لأبيه.. وأنا القاتل.

فهرس

الفصل الأول	٥
الفصل الثاني	٣٩
الفصل الثالث	٨٥
الفصل الرابع	١١٥
الفصل الخامس	١٤٥
الفصل الأخير	١٩٧